رواية

محمد زفزاف

محاولة عيش



المركز الثقافي العربي

محمد زفزاف

مُحاولة عيْش

الكتاب

مُحاولة عيْش

تأليف

محمد زفزاف

الطبعة

الثالثة ، 2011

عدد الصفحات: 96

القياس : 14.5 X 21.5

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-321-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 ـ 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

محمد زفزاف

مُحاولة عيْش

رواية

المركز الثقافي العربي

(1)

وقف يراقبهم من بعيد، يتأمل حركاتهم كيف يتدافعون بالأذرع. بعض الأذرع تتدافع والبعض الآخر يتأبّط حزمة من الصحف التي أعرض عنها القراء. سقطت بعض الصحف حول الخمرة المراقة مثل دم متخثّر. لكنّها لم تلطّخ. جمعها صاحبها وتزاحم مع الاثنين الآخرين حول ثقب الأنبوب الذي يصب في الباخرة. كانت الباخرة فرنسية، استطاع حميد أن يقرأ اسمها: «أيفون 5». إنه يعرفها جيّداً، لأنها تمرّ كل خمسة أو ستة أشهر لتنقل الخمور المغربية المعتّقة إلى مكان ما في العالم. عندما ترسو «أيفون 5» فإن حميد يتغيّر نهائياً تتلبّسه حالات من الفرح العارم، وعندما ترحل ترحل عنه تلك الحالات، يعود إلى بؤسه الحقيقي. لم يكن يعرف للرجل اسماً، إلا أنه سينغالي أسود، الوحيد الذي لا يشرب في الباخرة ولا يأكل لحم الخنزير. البحّار الوحيد الذي يصلّي. كان البحّارة الآخرون يتندّرون به ويضحكون منه. لكن حميد كان يحبه. وبالرغم من سواده فهو مسلم حقيقي. أحسن من بعض المسلمين البيض الأثرياء الذين يعرفهم في المدينة. إنهم قساة. لا يشترون جرائده. فقط يشتمونه عندما يدخل المقهى أو يعرض عليهم صحفه.

كان رفاقه الثلاثة ما يزالون يتزاحمون حول أنبوب الخمر الذي

يصبّ في الباخرة. يعرضون أفواههم للثقب الصغير الذي يسيل منه ذلك السائل الأحمر، الشديد المرارة. لقد سبق لحميد أن ذاقه لكنه لم يستسغه، فهو مرّ، شديد المرارة. أخذ أحد رفاقه الثلاثة يترنّح، فتح فمه مرّة أخرى في الثقب. ثم أخذ يسعل ويتفل. ثم بدأ شجار بين الثلاثة. لم يعرف حميد سبب ذلك، قرّر أيضاً ألاّ يعرف. ابتعد عنهم بخطوات متثاقلة. ومشى نحو سلّم الباخرة الذي يمدّ قائمتيه فوق الرصيف، صعد الدرجات الأولى فسمع صوتاً من فوق يأمره أن ينزل. كان صوت حارس الباخرة. إنه أحد الحرس الشرسين.

ـ أنت هناك. انزل. إلى أين أنت صاعد؟

ـ سأبيع لهم الصحف.

ـ إنهم لا يقرأون. انزل.

ـ أريد أن أرى السينغالي.

ـ السينغالي خرج. اذهب وفتّش عنه في المدينة.

ألقى حارس الباخرة بقايا سندويش في وجه حميد، وجرع دفعة واحدة علبة بيرة، ثم طوّح بها تجاهه لكنها لم تصبه، تراجع حميد. ليس هناك أيّة إمكانية مع ذلك الوغد، مشى نحو رفاقه الثلاثة، كانوا قد انتهوا من الشجار. جلسوا فوق أنبوب الخمر، وأخذوا يتبادلون سيجارة واحدة.

قال أحد الصّبية:

ـ هل ذهبت عند صديقك السينغالي؟

أجاب حميد:

ـ ذهبت، لكن ذلك الوغد طردني.

قال أحد الثلاثة:

ـ إنّه ابن حومتنا، سأتوسّط لك عنده. ضحك الآخران. وقال الصّبي:

ـ لماذا تضحكان؟ إني أعرف أمّه. وخالته تسكن بالقرب من بيتنا.

قال أحدهما:

ـ إذا ذهبت، فإنه سيُلقي بك في النهر، ألا تعرف ذلك الخنزير، لا شكّ أنه سكران الآن.

قال حميد:

ـ لقد ضربني بعلبة بيرة، لكنها لم تصبني. إن الباخرة التي يحرسها لا يستطيع أحد أن يدخلها.

قال أحدهم:

ـ أحياناً يكون طيّباً، هل تعرفون؟ إن أمّه مومس، ليس له أب، أمّ سوداء وهو أبيض.

ـ ليس تماماً، وجهه مثل الغراب.

انفصل حميد عن الثلاثة. عندما ابتعد عنهم أوقفه أحد الحمّالين. طلب منه أن يعيره الجريدة الوحيدة المكتوبة بالعربية. تمنّع حميد أول الأمر بدعوى أنه مشغول. لأنه يعير الجريدة بمقابل. ويبدو أن الحمّال فهم الأمر، وقال لحميد:

ـ هل تريد أن تصعد إلى تلك السفينة السويسرية؟ إنهم يقرأون الفرنسية، أعرني الجريدة وسأتحدّث مع حارس الباخرة حتى يسمح لك.

فكّر حميد قليلاً، نظر إلى الباخرة. رأى العلم السويسري

يرفرف فتأكّد أن الباخرة لم تكن إنجليزية ولا إيرلندية. بعض الأعلام تختلط عليه. عرف أن السويسريين يمكنهم أن يقرأوا الفرنسية. أدخل يده بين الجرائد تحت إبطه، واستلّ الجريدة الوحيدة المكتوبة بالعربية. سلّمها للحمّال:

ـ طيّب. اصعد وتحدّث مع الحارس.

أمسك الحمّال الجريدة وألقى نظرة على الصفحة الأولى، وقال لحميد:

ـ انتظر. سأعود على الفور.

صعد درجات سلّم الباخرة بهدوء وببطء، ورآهما حميد يتصافحان ويتحدّثان ويضحكان ويتمازحان. كان حميد يعرف الحارس. إنه ليس شرساً مثل اللقيط الذي يحرس الباخرة الفرنسية. لقد سبق لهذا الحارس أن سمح له كثيراً بالصعود إلى عدّة بواخر. أمسك حميد بحبل السلّم وأخذ يصعد الدرجات. كانت مياه النهر القذرة ترتطم بأحجار الميناء، نظر إليها تحته، وخاف أن تنزلق قدمه فيسقط فيها، ضرب حارس الباخرة على كتفه، وهو يقول:

ـ إن بعضهم يتحدّثون الألمانية، ولا يقرأون الفرنسية، لكن أنت وحظّك.

قال حميد:

ـ سأحاول، سأجعلهم يقرأون بطريقتي.

اختفى أخيراً داخل الباخرة، وقال الحارس للحمّال:

ـ لقد أصبحت شرطة الميناء تتشدّد معنا، بعد نهب السفينة الدانماركية في الشهر الماضي. لا يمكن لأيّ شخص أن يصعد إلى الباخرة إلا بترخيص من مركز الشرطة. هل تعرف الحكاية؟

ـ نعم، وأعرف أنّ شخصاً واحداً هو الذي فعلها. يقال إنه اغتنى واشترى لنفسه متجراً كبيراً في أسبانيا.

ـ مجرّد دعايات، لا أحد يعرف أين اختفى.

ـ يقال إنه فعل ذلك بتعاون الشرطة والجمارك نفسها.

ـ لا تفتح فمك أكثر، ولا تنسى أنك مجرّد حمّال. يجب أن تسكت.

قال الحمّال وهو يضحك:

ـ هل أنت مخبر أيّها الكلب؟

ـ بالرغم مني. كيف يسمح لي بحراسة الباخرة دون أن أكون مخبراً. لكنني مخبر فاشل.

ـ افعل مثلما فعل ولد الضاوية. لقد ارتقى وأصبح مخبراً من الدرجة الأولى بعدما اكتشف تلك الكميّة الكبيرة من المخدرات في جوف باخرة الفلّين الفرنسية.

ـ إني لا أستطيع أن أفعل مثله. إن له خبرة كبيرة في تصيّد الأخبار. وهو فوق ذلك، ثعلب محتال.

ـ لقد كنت دائماً أخشاه بالرغم من كوني مجرّد حمّال. كنت أخاف دائماً أن يكتشف أني أهرّب بعض زجاجات الويسكي وعلب السجائر، فيخبر شرطة الميناء.

ـ لست وحدك. كلّنا كنا نخشاه. حتى الشرطة والجمارك كانوا يخشونه رغم أنه مجرّد حارس باخرة.

ـ لكن ليسوا هم الذين عيّنوه، يقال إن له علاقة برجل كبير في المكتب الثاني بالرباط.

وعندما سمعا خطوات حميد فوق السلّم من جوف الباخرة، قال الحارس:

ـ اسكت، قد يكون هذا الطفل مخبراً من المكتب الثاني فيشي بنا.

ضحك الحمّال وقال:

ـ لقد عرفوا كيف يزرعون الشكّ في أنفسنا.

أطلّ رأس حميد من جوف الباخرة. بدا عليه فرح عارم. شعر الحارس بذلك فعرف بالحدس أن حميد لا شكّ قد قام بصفقة وعندما أصبح بالقرب منهما قال الحارس:

ـ هل بعت شيئاً؟

ـ بعت صحيفتين.

ـ الباخرة رست أمس فقط. لم يستطيعوا بعد أن يستبدلوا عملتهم بالعملة المغربية، لا شكّ أن جيبك مملوء بالدولارات.

ـ لا. أقسم لك. حصلت على أربع علب سجائر.

ـ أَرِنا إياها.

أخذ حميد يرتعد في خوف وقلق. دسّ يديه في جيبي بنطلونه. أخرج بالفعل أربع علب سجائر. لم يصدق الحارس. كان الحمّال يراقب ذلك في لامبالاة. اقترب الحارس من حميد وأخذ يتحسّس جسده من أعلى إلى أسفل، لم يعثر على شيء يثير الشكّ. ثم قال لحميد:

ـ هل سرقت شيئاً من المطبخ؟

ـ لا. أقسم لك، إن الطبّاخين موجودون.

ـ يمكنك أن تسرق حتى ولو كان هناك طبّاخون.

ـ أنت تعرفني جيّداً، أنا لست لصّاً.

ـ من أين لي أن أعرف أصلك؟

كان الحمّال، والجريدة في يده، يستمع للحوار دون أن يعير اهتماماً. قال الحارس:

ـ هات علبة سجائر.

ـ لقد أعرت الجريدة للحمّال.

ـ أنا لا أقرأ الجرائد، إنما أحبّ التدخين. ماذا تفضل؟ علبة واحدة أم الأربع؟

مدّ علبة سجائر للحارس. تغيّر لون وجهه. أخذ يزرقّ قليلاً لكنه حاول أن يصارع تلك الحالة النفسية، حتى يبدو أمامهما قويّاً. نظر بعيداً إلى ما وراء النهر، الذي ينعطف ويحاصر القاعدة الجوية الأمريكية، ليصبّ في المحيط الأطلسي. استمر في النظر، كان فكر في ردّ فعل عنيف، لكنّه وجد نفسه ضعيفاً أمام الحارس والحمّال. تناول جريدته التي كانت بيد الحمّال ونزل السلالم إلى الأرض، كان المرفأ خالياً من البشر. بعض المخازن فقط فتحت أبوابها، وبدت معتّمة من الداخل. ظهرت له في داخل بعضها صناديق من شتّى الأصناف: خشبيّة وكرتونية وبلاستيكية. وفي بعضها الآخر أكياس من مختلف الأصناف كذلك. ما يزال الأنبوب يصبّ في الباخرة والخمر تتدفقّ قليلاً وتسبح على الأرض حمراء وسوداء كدم في طريقه إلى التخثّر. مرّ بين أرجل الرافعات العملاقة. اجتاز خطوط السكة المتشابكة في أرض المرفأ التي يقطع بعضها بعضاً، في هندسة متناسقة. لم يرد أن يخرج من الباب الرئيسي للميناء. فهو

أكثر ازدحاماً وأكثر مراقبة. رأى صنبور ماء ملتصقاً بجوار أحد المخازن. اقترب من الجدار ووضع جرائده بعيداً عن الصنبور. وضع أيضاً فوق حزمة الجرائد قطعة حجر كبيرة حتى لا تذهب الريح بصحفه فيدفع ثمنها بالتقسيط لرئيسه على مدى ثلاثة أو أربعة أيام. وربما أدى به ذلك إلى الطّرد. كم تمنّى أن يكون ماسح أحذية لأن حياة هؤلاء حرّة، لم يكن يتحكّم فيهم أحد، على عكسه هو، فقد كان يسمع الشتائم ويتلقى الصفعات من رئيسه:

«تحدّث يا ولد الـ. . . هل أعطيتك الصحف لتبيعها، أم لتذهب وتنام بها في الحديقة العمومية؟ قلت لكم مراراً يجب أن تتفرّقوا، كل واحد في شارع، أنتم تتجمعون كالذّئاب في مكان واحد، تكلّم يا خنزير. . .».

كأن الصّنبور الملتصق بالجدار أسود وصدئاً. وتحت فوهة الصّنبور ماء عكر تجمّعت فيه أحجار وأوراق مبتلّة. يمتدّ الماء في شبه قناة، ليختفي بين بعض النباتات القصيرة القامة. فتح حميد الصّنبور، ورفع كمّية إلى الزندين، شرشر الماء فأحنى رأسه تحت الصّنبور. أخذ يدعك شعره بأصابعه. غسل وجهه أيضاً. وتراجع إلى الخلف، ثم أخذ ينفض شعر رأسه مثل جرو. نفض يديه كذلك، ومرّرهما على وجهه وتفل على الأرض. أحسّ بانتعاش غريب. ثم انحنى على خيوط حذائه الممزق يفكّها. جلس فوق قطعة حجر كبيرة ودلّى قدميه تحت الصّنبور. أخذ يدعكهما. ورأى ظلاً أمامه فوق الجدار المقابل. التفت في خوف. كان الرجل ببذلته الرسمية الزرقاء ينظر إليه بطريقة عدوانية ومسدسه يتدلّى عن يساره حتى ليكاد يسقط. لم يتبادلا أول الأمر أي كلمة. أخذا ينظران إلى

بعضهما. العيون وحدها تتحدّث. بعضها خائف وبعضها غاضب.
وقال الرجل ذو البذلة الزرقاء:

ـ ماذا تفعل هنا أيّها اللّقيط؟ كم مرة قلت لك ألا تعود إلى هذا المكان؟ هل عندك ترخيص لدخول الميناء؟

قال حميد:

ـ كان عندي وضاع.

ـ من سلّمه لك؟ كم زجاجة من الويسكي تهرّب كل يوم؟

ـ أنا لا أهرّب شيئاً، شرطة الميناء هي التي سلمتني الرخصة، إني مجرّد بائع صحف. صدّقني سيدي.

ـ هل تعرف أين نحتجز أمثالك؟ إنك تصلح لأولئك السكارى المهرّبين.

ـ لن أكرّرها مرّة أخرى. لن أدخل الميناء أبداً.

أخرج الرجل علبة سجائر، وضرب مؤخرة السيجارة على إصبعه ثم ألصقها بفمه. أشعل السيجارة وفكّر طويلاً. ابتعد عن حميد بخطوات قليلة. وقف تحت الشمس ورفع مقدمة قبعته إلى أعلى قليلاً كمن يفكر في مشروع هام. عاد إلى الوراء قليلاً. اقترب من حميد ودفعه بقدمه دفعة خفيفة وهو يقول:

ـ طيب، اجمع صحفك. إذا عدت مرّة أخرى فسأعرف ما أفعل بك.

أدخل حميد قدميه في فردتي الحذاء وأسرع إلى صحفه يتأبّطها. ابتعد عن الرجل في خوف:

ـ شكراً سيدي. لن أكررها مرّة أخرى، لن أدخل الميناء أبداً.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتعرّض فيها لمضايقات،

ولم يكن هو وحده الذي يتعرّض لذلك من بائعي الصحف. إن هؤلاء الحرّاس أجلاف، كأنهم ولدوا وتربّوا في مواخير. لقد عرف بعض الشبان منهم الذين التحقوا أول الأمر بهذه المهنة. كانوا مؤدّبين، يتحدّثون بطريقة لطيفة، غير شرسين. لكن بعد مرور عام عليهم، أصبحوا مثل الآخرين يتصرّفون كأجلاف، ويتكلّمون بطرق منفّرة للذوق. وعندما جمع حميد صحفه ومشى بخطوات متخاذلة باتّجاه باب الميناء الأوسط الذي لا يكون فيه إلاّ حارس واحد، فكر أنه ربما سيلاقي مضايقات أخرى. إنه يعرف أغلب الحراس، على الأقل أولئك الذين ينتزعون منه علب السجائر قسراً، على الأقل أولئك الشبان. أما المتقدمون في السنّ والذين يكونون قد اغتنوا بطرق غير مشروعة، وضمنوا لأولادهم المستقبل السعيد، علموا بعضهم وزوّجوا بناتهم، فإنهم لم يكونوا ليطمعوا في أمثال حميد. صاروا حكماء يفكرون مليّاً قبل الإقدام على أيّ عمل. ولم يكن ذلك يمنع من مشاركتهم في بعض صفقات التهريب السرّية والتي لا يمكنها أن تجرّهم إلى مشاكل في أغلب الأحيان.

رأى حميد البراكة الصغيرة وقد بهت لونها البنّي، ورأى من الطاقة الصغيرة رأساً يعتمر قبعة، فوق كتفين يحملان شارات. لم يستطع أن يخمّن من يكون الحارس. كانت البراكة الصغيرة ملتصقة متّكئة على باب ضيّق. باب الميناء الأوسط، والباب مفتوح دائماً، يؤدّي إلى وسعة متربة، ثم إلى طوار لم يرصّف جيّداً، ثم إلى طريق واسعة، تتفرّع بعد ذلك إلى وسط المدينة الحديثة. وعندما اقترب حميد من البراكة الصغيرة، حاول ما أمكن أن يحترس، وأن يمشي بخطوات لا تثير الانتباه. أخذ يصفّر، ثم ضرب حجراً بقدمه متظاهراً بالبراءة.

وعندما كان يجتاز الباب انقض الحارس عليه وأمسكه من الخلف:

ـ تعال هنا. هل تعتقد أنك في بيتكم؟ ماذا تفعل لنا هنا يا كلب؟

ـ اعذرني سيدي. لم أرك.

ـ أنت تكذب. ترّس فيّ جيّداً. ألا تعرفني.

ـ آه، صحيح، إني أعرفك.

ـ تعرفني وتمرّ هكذا بسهولة دون السلام عليكم!.

ـ اعذرني سيدي.

جرّه الحارس إلى البرّاكة. شعر حميد بخوف، هؤلاء الأجلاف. كم هم قساة... كأنهم ولدوا وتربّوا في مواخير. ربما اختاروهم من المجرمين ومن سفاكي الدماء. انتزع الحارس منه الصحف، شتّتها فوق طاولة أمامه:

ـ ماذا تخبّئ هنا؟ هل هناك سجائر؟ هل هناك دولارات؟

ـ لا. أقسم لك.

ـ اسكت، أنا أعرف مهنتي.

أخذ ينفض الجرائد. لم يتساقط منها شيء، تكمش بعضها. فكّر حميد أن رئيسه سوف يشتمه في المساء، وسيتّهمه بأنه يدفع الجرائد لبعض الزبائن يقرأونها بمقابل ثم يردّونها له، الشيء الذي يسبّب خسارة لشركة التوزيع. سيركله الرئيس، وسيسبّ أمّه وأباه وكل أجداده. ومع ذلك، فإن حميد لا يعرف أجداده. أمّه وأبوه قاسيان جدّاً. لا يحبّ أباه لأنه كسول، ينام كثيراً، وينتظر حميد في آخر الليل ليحصي أمامه أجرة اليوم. كان الأب عابساً دائماً، لكنه يبتسم ابتسامة ثعلب ماكر عندما تكون حصّة اليوم مرتفعة قليلاً ويمنّيه

أحياناً باقتناء دراجة هوائية، لأن رجليه من غير شك تفسّختا من كثرة المشي.

عندما انتهى الحارس من نفض الجرئد، تظاهر بالغضب. رفع مقدمة قبعته إلى أعلى وأخذ يحك جبهته بإصبع واحد، وقال لحميد:

ـ لا يمكن أن تنطلي عليّ حيلتك.

جذبه بعنف ليدخل الخوف والتخاذل في نفسه، وأخذ يفتّشه بسرعة. شعر حميد بالخوف حقّا هذه المرّة، إنه أمام وغد حقيقي، وغد وُلد وتربّى في ماخور.

وقال الوغد الذي وُلد وتربّى في ماخور:

ـ انزع سروالك. سأفتش كل شيء فيك.

أخذت بعض قطرات الدموع المستعصية تتسابق من عيني حميد:

ـ والله سيّدي، ليس معي شيء.

ـ انزع وإلاّ أرسلتك إلى الشارع عارياً.

أخذ حميد يفكّ أزرار سرواله، والحارس يساعده في ذلك. كان حميد يبكي. عالم قاس من حوله. وعندما انتهى الحارس من مهمّته، عثر على دولار واحد وعلب سجائر، شعر بنشوة حادة، ثم دفع حميد خارج البراكة:

ـ الآن يجب أن تتعلّم كيف تكذب عليّ!

تحامل على نفسه وغادر الميناء. عند أقرب جدار انهار تماماً، مدّد ساقيه على الأرض وألقى بحزمة الصحف جانباً. ثم أجهش بالبكاء.

(2)

امتداد شاسع من البراريك القصديرية، كلها تمتدّ في ساحة واسعة بضاحية المدينة، تتعرج أحياناً وتتشتّت لتلتقي في أماكن معينة. كل هذه الآلاف من الناس هي في خدمة سكان المدينة. منهم الحفارون والخادمات واللصوص ومنهم الصبّاغون والجيّارون والبائعون المتحوّلون والمتسولون وكل شيء. منهم كل شيء وكل شيء حتى بائعو الصحف، ومن بائعي الصحف حميد. لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه أوّل الأمر، أحياناً كان أبوه يأخذه معه إلى الغابة لجني البلّوط وبيعه بثمن بخس لكنّ ذلك لم يكن يستمرّ طويلاً، فموسم البلّوط كان ينتهي بسرعة، لأن سكان البراريك العاطلين كانوا ينقضّون على الغابة مثل الجراد، فلا تبقى هناك بلّوطة واحدة. ورغم محاولات الدولة لمنعهم من ذلك فإنها لم تكن تفلح. كانت النتيجة العثور على عدد من جثث حرّاس الغابة ممزّقة أو مشوّهة، إنها المجاعة، وحيث يكون الجوع فإن قُتل الإنسان يكون مثل قتل ذبابة. وكم من حارس غابة قتل في مثل هذه المواسم. كان حميد أحياناً يذهب مع رفاقه لجني البلّوط ويتقاسمون ثمنه فيما بعد. أبوه كان كسولاً، يفعل ذلك فقط (يجني البلّوط) عندما يحسّ أنه في حاجة إلى نقود لشراء سجائر، أو عندما

تشتدّ به حميّة القرم كما يقول العرب، إذ تمر شهور دون أن يذوق شنتيفة لحم، وقتها يعزم على أن يعمل. يأخذ حميد معه إلى الغابة ويعودان بكيس من البلّوط، يبيعه أبوه ثم يقصد مجموعة أشباه الجزّارين من ذبّاحين ومتعلّمين في مجزرة المدينة، الذين يأخذون كأجر لهم من عملهم، بعض السقط، يشتري كيلوغراماً من السقط. ويوصي زوجته بأن تطبخه جيّداً، وتحاول زوجته ما أمكن أن تردّد كلمة «لحم» وهي تتحدث إلى أطفالها الثلاثة: «ابتعد عن الطجين، دع اللحم يطيب». تحاول ذلك أكثر من مرّة حتى يسمعها الجيران. وتشعر بنشوة كبيرة، عندما تدرك، من تكرار كلمة لحم، أن أفواههم تحلّبت، وأن أطفال الجيران بدأوا في البكاء والصراخ: «أمي لحم حم م!» لم يكن ذلك سوى مجرّد ردّ فعل، فالجارات أيضاً كنّ يفعلن الشيء نفسه.

لا تنسى الزوجة، أثناء تناول الطعام، أن تضع قطعة صغيرة من السقط في كسر خبز، وتنادي على إحدى جاراتها التي تحبّها، تنادي عليها بصوت مرتفع: «خذي هذه اللحيمة وأعطيها للطفل، حتى ينام». وقد تتخاطف اللحيمة العائلة كلها، وعندما يردع الأب حميّة القرم وحميّة التدخين يبقى بعد ذلك، طوال أيام، يحلم بذلك اليوم الذي أكل فيه السقط، كل الرجال يحاولون أن يتدبّروا أمر عيشهم. أغلب الرجال. لكنه هو، يجب أن ينام كثيراً، أن يثرثر كثيراً، أن يجلس عند باب حانوت، ينظر إلى الغادين والرائحين، أو يلعب الورق، أما حميد فلم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه. ثم حاول أن يفعل بنفسه شيئاً.

قال الضاوي:

ـ إلى متى ستظّل هكذا؟ لقد أصبحت رجلاً. قامتك أطول من قامة أبيك.

ـ أعرف ذلك.

ـ تعرف وتظل نائماً مثل أبيك.

ـ عندما أكبر قليلاً سوف أصبح حمّالاً في الميناء.

ـ ريثما تكبر تعال لتبيع الصحف مثلي. الرئيس في حاجة إلى بائعين آخرين.

لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه. لكنه الآن عرف ماذا يفعل بها. في الفجر أيقظته أمه على إثر طرقات الباب. دسّت في جيبه كسرة خبز. كان الضاوي يجرّ درّاجته الهوائية، مَشَيا وقتاً قصيراً على الرمل الذي كان يتشبّث ويعرقل دوران العجلتين. الضاوي يجرّ الدراجة وحميد يدفعها من الخلف، لم يكونا يتحدّثان. بقايا من نوم ما تزال تثقل أعينهما وشفاههما. بعد قليل ستشرق الشمس، ويجب أن يكونا في مكتب التوزيع قبل أن تشرق. عندما بلغا الطريق المرصّفة، امتطى الضاوي الدراجة وأردف حميد أمامه. المصابيح العمومية ما تزال مضاءة، بعد قليل سوف تنطفئ. سوف تظهر الأشعة الأولى للشمس، وسوف يكون حميد متأبّطاً لأوّل حزمة من الصحف. لم تكن له أية فكرة عن هذه المهنة، وهي مع ذلك سوف تكون أحسن من لا شيء. تمايلت الدراجة كثيراً، وأوشكا على السقوط مراراً قبل أن يصلا إلى مكتب التوزيع. كانت المسافة طويلة بالرغم من أن الضاوي يعرف كيف يختصر الطريق، هناك طرق ثانوية خالية، لكنها على كل حال، تستطيع أن تؤدي إلى مكتب التوزيع، وفي أقرب وقت ممكن.

في الطريق، أخذ حميد فكرة عن الرئيس. عليه أن يكون مؤدّباً أمامه، أن يكون ساذجاً، فالرئيس لا يحبّ الأذكياء ذوي النظرات الحادّة، يحبّ المعتوهين المغفلين. إن أقدم بائعي الصحف كلهم معتوهون، لم يستطيعوا تغيير هذه المهنة منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية. شاخوا وانسخلت أقدامهم، هذا هو النوع الجادّ، هو الذي يكون مقبولاً من طرف الزبائن. بعضهم يشتري الجريدة ويلقي بها في أول مرحاض، أو يلفّ بها بعض أغراضه.

ذهل حميد لهذا الطابور المصطفّ أمام مكتب التوزيع. شيوخ وشبّان وآخرون في مثل سنّه. كان عددهم حوالي العشرين. بعضهم ما يزال يتثاءب وبعضهم تمدّد على الرصيف معطياً ظهره للجدار يغطّ في نوم عميق، لا بدّ أن هؤلاء الناس لا ينامون بما فيه الكفاية (عرف حميد ذلك فيما بعد. هو نفسه لم يكن ينام سوى ثلاث ساعات أحياناً من أصل أربع وعشرين ساعة). جرّه الضاوي من سترته الممزّقة. كان الجوّ بارداً، لكنّه لم يكن ممطراً، أشعّة الشمس الأولى توزّعت في السماء. انطفأت المصابيح العمومية. لكن هناك غبشاً ما يزال منتشراً في كل مكان. الأشجار على رصيفي الشارع مندّاة، وبعض العصافير تزقزق مختفية وسط أوراق الأشجار الكثيفة. وعندما اختلى الضاوي بحميد في زاوية ما، قال:

ـ لا يمكن أن أبقى معك الآن. بعد قليل سوف تأتي السيارة المحمّلة بالصحف. وبعد قليل كذلك سوف يستيقظ سي إدريس. إنه الرئيس.

ـ لا تتركني وحدي. ماذا أقول له؟

ـ لا تخف. قل له إن الضاوي ابن عمتي. سوف أتحدّث إليه.

ـ ألا يمكنك أن تبقى معي.

ـ غير ممكن، لو تأخرت دقيقة واحدة لضيّعت العديد من زبائن الصباح، سوف تعرف ذلك فيما بعد.

(عرف حميد فيما بعد أن تلك هي الحقيقة، وأن الضاوي لم يكذب عليه).

وعندما توقّفت الأسطافيت، انطلق نفيرها يوقظ من ما يزال به نوم، وعلى الفور خرج رجل سمين يضع نظارتين سميكتين على عينيه. كان شبيهاً بيهودي يبيع الفراخ والدجاج. تعوّد أن يقدم لحميد بقايا سندويش كلما مرّ أمام دكانه. لو لم يكن اسمه سي إدريس لاعتقد حميد أنه هو. كان في يد الرجل حزمة مفاتيح، وبدا في مشيته كما لو كان يزحف. لم يقل صباح الخير. ولكنّه تقدّم فقط من باب زجاجي مصبوغ نصفه الأسفل بالأبيض ونصفه الأعلى بالأخضر. صرّ المفتاح في الثقب. ثم انفتح الباب لتظهر عدّة مكاتب عليها بعض الأوراق. فتح الرجل السمين بعض الجوارير وأدخل تلك الأوراق. أنزل بعض الباعة حزم الصحف وألقوها على الأرض، ثم تبعوا الرجل السمين، في حين ظلّ حميد يراقب المشهد من بعيد، بعد قليل رآهم يغادرون المكتب وهم يركضون في اتّجاهات متفرقة ينادون بأصوات مرتفعة. وعندما خرج الضاوي أشار له برأسه أن يدخل هو الآخر، ثم امتطى دراجته بسرعة وهو يصرخ كذلك إلى أن اختفى نهائياً.

لم يكن حميد يعرف ماذا فعل بنفسه، ولكنه الآن عرف ماذا يفعل بها.

كان الرئيس يتحدّث إليه بصوت جاف وغير مسموع. سأله عن

علاقته بالضاوي. شرح له شروط المهنة شرحاً مقتضباً. ثم تأمله من خلف نظارتيه السميكتين، كان في نظراته احتقار للعالم، جفاف، قسوة.

ـ كم سنّك؟

ـ ستّ عشرة سنة.

ـ آه، إنها السنّ المناسبة. هذه مهنة المستقبل، عليك أن تكون جادّاً إذا أردت أن تموّل عائلتك. هل تدخّن؟

ـ لا.

ـ مزيان. هل تسكر؟

ـ لا.

ـ مزيان أيضاً، لكن هذا غريب. إن الحثالة من أمثالك يكونون قد تعلّموا هذه الأشياء قبل بلوغ العاشرة. لا علينا. إذا لم تكن قد تعلّمت هذه الأشياء فالطريق أمامك مفتوحة. ستعرف كلّ أصناف البشر، اللّصوص، الموظفين، الجنود الأمريكان، المومسات، إنه عالم كبير ينتظرك، ستحتكّ به بعد حين.

كانت تلك هي الطريقة التي يتحدث بها سي إدريس بل أكثر من هذا، أحياناً يتلفّظ بكلمات منحطّة جداً، الأمر الذي يتناقض مع هيئته السمينة وشكله الموحي بالاحترام. وقال حميد: (هذه هي البداية). وتصوّر ذلك العالم الذي حدّثه عنه الرئيس. أغراه من كل ذلك العالم الجنود الأمريكان، سوف يصبح مثل أولئك الذين يعرفهم في الدوار، سوف يمتلك ساعة أمريكية وتكون جيوبه مملوءة بالدولارات. . . تصوّر أشياء أخرى، وأخذ الرئيس يعدّ الصحف بسرعة فائقة. ثم ناول حميد حزمة.

ـ إذا ضاعت منك صحيفة واحدة فأنت الذي تدفع ثمنها، هيّا اركض، هل تعرف أزقة المدينة جيّداً؟

لم يجب حميد. تأبّط الجرائد وركض من باب المكتب دون أن يعرف أي اتّجاه يأخذ، ثم سمع صوتاً من خلفه، توقّف والتفت. كان الرئيس بجثّته الضخمة يصرخ فيه:

ـ يا حمار، إلى أين أنت ذاهب؟ اذهب من الطريق الآخر التي تؤدي إلى المقاهي حيث يتناول الناس إفطارهم.

هزّ حميد رأسه، وأخذ يركض في الاتّجاه الذي أشار إليه الرئيس، لكنه لم يكن يصرخ. لأنه لم يكن يعرف عناوين الصحف التي يتأبّطها. كان يركض، ويركض، يركض مثل مجنون.

(3)

على حصير بال، باهت الصّفرة، تربّع حميد وتربّع الأب، في حين كان أخواه يغطّان في النوم، أو ربما كان أحدهما يتظاهر بالنوم. وهو يلتقط ما يدور في البراكة. ربما أيضاً، تمنى أن يصبح في مثل سنّ حميد، فيجد له هو الآخر عملاً، يتعلّم التدخين والشرب وكل شيء.

تظاهرت الأم، وهي تضمّ نفسها وتجمعها داخل خرقها البالية، تظاهرت بعدم الاهتمام بشيء. أخرج حميد تلك القطع النقدية الصفراء والبيضاء، بسطها بكل أمانة أوّل الأمر، لم ينفق منها شيئاً خفية كما سيفعل فيما بعد. الأب يحصي القطع النقدية والأم تتظاهر بعدم الاهتمام. اقتربت من الجمر وأخذت تنفخ عليه بفمها ويدها لأن النار أوشكت على الانطفاء. أمسكت برأس غطاء البرّاد ورفعته. رأت الشاي يغلي، وعادت إلى مكانها.

انتهى الأب من العدّ. ظهر في عينيه بريق. ابتسم حتى ظهرت أسنانه القذرة والسوداء، من كثرة التدخين، كأسياخ الحديد. رأت الزوجة ذلك فنقلت بصرها بين حميد وبين أبيه، قالت:

ـ الله! شيء خيرٌ من لا شيء.

ـ في هذا خير وبركة، قال الزوج.

وقالت الأم:

ـ قلها لنفسك. لو أنك تفعل مثل أسيادك: تستيقظ مبكّراً وتذهب إلى الميناء، تأخذ مكانك بين الحمّالين وتعود في المساء بثروة.

ـ أنت لا تعرفين الميناء. لا يصلك الدور إلا بالرّشوة أو إلا إذا كنت قوية كجمل.

ـ انظر إلى كتفيك، إنهما مثل كتفي بغل.

ـ يا بنت الناس ما عندي صحّة. ثم إننا لا نريد أن نتشاجر الليلة. اهتمي بتهيئة شايك.

لم يتدخل حميد. لأنه لا يمكن له أن يتدخّل، وعندما يتدخّل في مشادّات كلامية مثل هذه، ينهالان عليه ضرباً. هو ليس مثل أصدقائه من أبناء الحيّ الذي يضربون أمهاتهم حتى يسيل الدم من أنوفهنّ. كان يعتقد أن ذلك عيب ولا يرضي الله. لم يكن يحبّ المغامرة، أولئك عندما كانوا يرتكبون مثل تلك الفضائح يستطيعون أن يتغيبوا مدة شهر عن عائلاتهم. يظلّون يعيشون من مزابل المدينة وينامون في الحدائق العمومية وتحت أبواب العمارات، حتى تلتقطهم في نهاية المطاف سيارات الشرطة أو تطاردهم أثناء حملة تنظيف المدينة من أمثالهم. إذ ذاك يعودون، وتكون الأمّ قد نسيت ما وقع لها. وقد تقول إحداهنّ:

ـ مهما يكن يا فلانة، فهو ابني من لحمي ودمي. عندما يكبر أكثر يعرف أن ضرب الأمّ عيب.

ثم تتظاهر باللّوم وتشتمه شتماً خفيفاً وقد تضربه على قفاه: «يا مسخوط الله والعبد. ادخل وكل كسرة خبز .الله يلعنها ساعة.

هذا قرن أربعطاش (14) لا هنا، لا معاش».

حميد لم يكن من ذلك النوع. لم تقع له أبداً مشادّة كال فيها لأمه ضرباً. وإن كان، في العمق، يريد أن يفعل ذلك. لكن هناك أشياء تمنعه من فعل ذلك. جرّت الأمّ الصينية، توقفت عن مناوشة الزوج، أخذت تصبّ الشاي في الكؤوس. قطع الأب الخبزة إلى عدة كسر أمامه، جرّ طبق الزيتون، وهذه المرة دون أن ينظر نظرة شرسة إلى حميد. قدّم له الخبز والشاي كما يقدّمه لضيف صديق. في السابق، كان حميد يلعن تلك اللحظة التي سيتناول فيها الطعام.

الأب:

ـ كل يا بغل. كتفاك مثل كتفي الحمل. لا ينفع فيك أكل.

الأمّ:

ـ كل، تأكل فيه سمّاً.

الأب:

ـ متى يتدبّر هذا الحمار أمر نفسه؟ هذا كثير عليّ، كثير عليّ.

الأم:

ـ وأنا انظر إليّ. لقد جعلتم مني عجوزاً قبل الوقت. اشتغلت كل الحرف لكي أطعم زوجاً كالبغل وأطفالاً يأكلون كالجراد.

أحياناً، عندما كان حميد يسمع مثل هذا الكلام كان يفضّل ألاّ يأكل بتاتاً. يخرج إلى بائعي التين الشوكي أو بائعي البرتقال أو بائعي البطيخ الأصفر والأحمر، ثم ينظم غارة هو وبعض أصدقائه، فيختطفون أو يسرقون ما يقتاتون به. وربّما كانت الغارة فاشلة، فينتهي أحدهم إلى مركز المقاطعة، حيث يشبعه ضابط القوات

المساعدة أو الاحتياطية ركلاً وصفعاً، الركل والصفع من إنسان أجنبي فيه بطولة، خصوصاً إذا كان رجل سلطة، وهو خير من ذلك الشتم الذي يسمعه من أمه وأبيه.

الآن، يأكل حميد دون أن يحسّ بمرارة ما سيأكل، لقد أدّى الثمن. تلك النقود المعدنية البيضاء والصفراء استطاعت أن تحميه. لكنّ النهار كان متعباً، سيتعلّم فيما بعد كيف يستريح وقد بدأ يتعلّم. كان أصدقاؤه بائعو الصحف أوّل الأمر لا يحبّونه. كل بائع جديد يحصل له الشيء نفسه. الموقف نفسه يتّخذه منه الباعة القدماء. لكن ذلك الموقف يتلاشى فيما بعد.

أكل حميد الليلة خبزاً وزيتوناً، شرب أيضاً شاياً. في السابق، كان يأكل الخبز فقط، أو يتناول الخبز والشاي. لم يكن يتحدث إلى أبيه وأمّه. كان يزدرد في صمت. ينظر إليهما في صمت أيضاً. وعندما اكتفى. تمدّد في زاوية ما من البرّاكة فوق الحصير، حنان آخر. قالت الأم:

ـ الحصير بارد، خذ تلك البطانية وافترشها.

مدّ يده إلى البطانية القديمة المهترئة عند رأسه، بسط جزءاً منها فوق الحصير، وغطّى جسده بالجزء الثاني. ثم وضع تحت ذراعه شبه وسادة، برزت من بعض ثقوبها حلفاء خشنة، أخذت هي الأخرى تفقد لونها الحقيقي. وسمع الأمّ تقول وهي تمضغ وترشف الشاي:

ـ يمكنك أن تنام، سوف تستيقظ مبكراً.

قال حميد:

ـ لا يهمّ، أستطيع أن أنام غداً عند الظهر، هناك مكان أنام فيه

ـ أشمّ هواء.

ـ لا شكّ أنك تشاجرت معها. تعال فرّج عن نفسك.

أخرج من تحت سترته زجاجتي نبيذ رخيص:

ـ تعال. إن معي امرأة.

قال الحسن:

ـ لا أرغب في ذلك. أريد أن أنام.

ـ ذاك شغلك.

ثم اختفى في الظّلام.

(4)

بعد جولة في مختلف الملاهي اللّيلية، توقّف حميد عند «وهران بار» وقام بجولة أيضاً داخل (البار). الشمس لم تشرق بعد، (البار) صاخب، هناك سكارى كثيرون، وهناك أناس لا تستطيع أن تعرف هل كانوا شاربين أم لا، أمام فناجين قهوة أو كؤوس اللّبن المخلوط بالقهوة. بعضهم يأكل، والبعض الآخر يتأمّل في هذا العالم حوله. الشمس لم تشرق بعد، حميد يشعر أنه لا يزال في حاجة إلى النوم، كانت طاولة معزولة في زاوية من (البار) حولها ثلاثة كراسي. فكّر أن يذهب هناك وينام. أراد أن ينفّذ المشروع، تردّد قليلاً، لكنه في الأخير أخذ يشقّ طريقاً له بين زحام الزبائن الذين سكروا والذين لم يسكروا والذين يستغلّون فرصة من سكر لكي يبتزّوه بطريقة أو بأخرى. أوقفه أمريكي ضخم الجثّة. كان في منتهى السكر. مدّ له زجاجة البيرة وتحدّث إليه بالأمريكية، لم يفهم حميد كلمة مما خرج من فمه. لسان الرجل متعب من فرط الشراب. فهم أنه يدعوه للشراب، أشار حميد برأسه أن لا. لكن الأمريكي خاطبه بالعربية:

ـ لا تريد؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ أنا مسلم.

ـ قل أنا صغير أحسن.

ابتعد الأمريكي جهة (البار)، وضع زجاجة البيرة المملوءة قليلاً، نظر إليه حميد وهو يتمايل بجثّته التي تشبه جثّة فيل. نادى على حميد، تبعه جهة آلة (الفليبر)، حيث كانت امرأة أجنبية تحرّك عجيزتها وراء الآلة، قال الرجل الضخم لحميد:

ـ هل تريد أن تلعب مع هذه الفرنسية؟ إنّها تحبّ العرب الصغار والكبار.

ضحك الأمريكي وضرب المرأة من الخلف. صرخت المرأة دون أن تلتفت إليه: «أي، دعني ألعب، سأربح هذه الدورة، كم ستدفع إذا هزمت أيها السكير؟».

قال الرجل:

ـ سأدفع لك حياتي.

التفت إلى حميد وهو يتمتم:

ـ وحياة هذا العربي الصغير.

لم تعجب حميداً هذه اللّعبة، كان يفكّر في أن يستريح قليلاً على أحد كراسي الطاولة في الزاوية قبل أن تشرق الشمس، إنّه يعرف أن الناس لا تقرأ الصحف صباح ليلة السبت. أغلب الزبائن يفقدون وعيهم هذه اللّيلة. يصبحون أطفالاً صغاراً، في مثل هذه اللّيلة أيضاً يحصل الكثير من رفاقه الكبار، بائعي الصحف، على أشياء ثمينة: ساعات يدوية، علب سجائر، أقلام ذهبية وعادية، دولارات وعملات دولية. يتدفق على البارات الجنود الأمريكان والملاّحون من مختلف الجنسيات. تسكر المغربيات والأجنبيات.

يتشاجرون في صباح هذه اللّيلة بالزجاجات وبالأيدي. الجنود الأمريكيون بالخصوص، يدوسون كثيراً من الخادمات المغربيات والسّكارى بسياراتهم الطويلة العريضة. في هذا الصباح أيضاً من كلّ أسبوع، تكثر مطاردات شرطة القاعدة الجوية الأمريكية لهؤلاء الجنود الذين يزرعون الرّعب كما في الأفلام. الشرطة المغربية لا تحرّك ساكناً في الغالب، إلاّ مع بعض المومسات الوافدات من سيدي يحيى وسوق الأربعاء أو جمعة المكرن أو سيدي علال التازي. قيل لحميد إن رجال الشرطة يعتقلونهن لابتزازهن أو لاغتصابهن. الكثيرات منهنّ لا يتوفّرن على ورقة تعريف مكتوب علهيا (شغالة) أو (محترفة). أحياناً تعتقل حتى المرأة التي تحمل ورقة المهنة: (محترفة)، بتهمة الزّنا، إن الإسلام يمنع الزّنا، والشرطة ـ في بعض الأحيان ـ تعترف به، إذا كانت المرأة تعرف كيف تدفع من جيبها أو من جسدها. الأشياء تبدو عادية لدى حميد. ليس هناك أيّ تناقض. انجُ بجلدك إذا ما رأيت سيّارة شرطة.

كان حميد يتغدى. تقاسم مع الضاوي قطعة الخبز والزبدة والليمونادة. سمع أحد باعة الصحف يحكي لأصدقائه، كان شاباً قويّاً، سأله أحدهم:

ـ لقد سكرت حتّى أخذوك إلى السجن شهرين. أحدثت فوضى.

ـ لا، لم أسكر.

ـ لقد كذبوا عليك إذن.

ـ نعم، من أجل امرأة تشتغل في (بار)، هي ابنة حيّنا. حرّضت عليّ شرطيّاً لسبب معيّن.

ـ إنّك تضخّم الأشياء. لقد سكرت وأحدثت فوضى.

قال الآخر بدون غضب، وحميد يستمع لمغامرة السجن هذه:

ـ لقد أصعدني الشرطي بالقوة إلى السيارة. هل تعرفون ماذا فعل فيما بعد؟ أتى بزجاجتي خمر فارغتين، وزجاجة ممتلئة حتى النصف، قال: لقد شربت كل هذا وفعلت كذا وكذا، لم أفهم شيئاً من كلّ ذلك. قلت أمام المحكمة إنّني لم أشرب، وحاولت أن أشرح كل شيء لرئيس المحكمة، لكن الرئيس سألني:

ـ مهنتك؟

ـ بائع صحف.

قال الرئيس:

ـ تفعلها وتفعل أكثر منها أيّها الكلب.

ـ والله يا سيدي لم أفعلها، ثم إن الخمرة ليست حراماً. كلّ المسلمين يشربونها في (البار)، اذهب يا سيدي الرئيس إلى البارات لترى كيف أنّ جلّ المسلمين يشربون الخمر. والشرطة فوق ذلك تحرسهم.

قال الرئيس:

ـ من أين تعلّمت هذا الكلام؟ هل تريد الإخلال بمقدّسات البلاد يا كلب؟ يجب أن ترى وتسكت، أن تسمع وتسكت.

وبعد ذلك:

ـ حكمت المحكمة على المتّهم... إلخ.

لم يفهم حميد من قصّة بائع الصحف شيئاً. ولكن بدا له أنّ كلّ شيء معقول، وإن كان غير معقول في الوقت نفسه، كان يشرب

الليمونادة ويأكل الخبز بالزبدة، ويتلذّذ بهذا الطعام الذي يختلف كثيراً عن الشاي والخبز، أو الخبز والزيتون. الضاوي أيضاً يأكل بتلذّذ، وقال لحميد وهو يمضغ ببطء، ويبتلع ببطء كذلك:

- لا تثق بقصّته، يمكن أن يكون قد سرق لأحد الأمريكيين شيئاً. إنّه يفعلها دائماً.

قال حميد:

- على كلّ حال، أنا لم أفهم شيئاً من قصّته! ولكن يبدو أنّه يريد أن يدخل في صراع مع الشّرطة والدّولة. عليه أن يعرف أن ذلك ليس في مستطاع الفقراء أمثالنا. أنا شخصياً إذا رأيت شرطياً أطلق رجليّ للريح.

قال الضاوي:

- يجب أن تفعل ذلك مثلي، أن تفعله دائماً.

المرأة ذات العجيزة والأمريكي الضخم يتعانقان الآن، ويتدافعان عند (البار). لا أحد ينتبه لهما. لأن هناك رجالاً آخرين ونساء أخريات يفعلون الشيء نفسه. يدخلون إلى الملهى الليلي من (البار)، ويخرجون من الملهى الليلي إلى (البار). الطاولة ما تزال فارغة. ذهب حميد وجلس على أحد الكراسي الثلاثة. وضع حزمة صحفه فوق الطاولة. وحاول أن يغمض عينيه. فعل ذلك رغم الضّجيج. بعد لحظة ذهب في نوم خفيف، لكنّه شعر بضربة على رجليه. فتح عينيه. كان الجرسون واقفاً بقامته الطويلة، ويتحدّث إليه بعربية ذات لكنة:

- هيه أنت، هل تعتقد أنّ هذا الكرسي سرير؟ غادر (البار) فوراً وإلاّ ألقيت بك إلى الشارع منَ النافذة.

قال حميد:

ـ أريد أن أستريح قليلاً.

ـ اذهب واسترح في الخارج، فوق الطوار، أو في قمامة الزبال.

لم يُبدِ حميد أيّ اعتراض. تأبّط حزمة صحفه، أخذ يخترق الزحام ليغادر (البار). أوقفه أوروبّي قصير القامة، يضع قبّعة سوداء على رأسه، اشترى منه جريدة، ودفع له أكثر من الثمن. شعر حميد بفرحة زائدة. كانت الموسيقى تنبعث صاخبة من الملهى الليلي وتمتدّ إلى داخل (البار)، وعندما وضع قدميه على عتبة (البلر)، سمع الأمريكي يناديه:

ـ إيه محمد!

التفت حميد. اقترب منه الأمريكي ذو الجثّة السمينة:

ـ تعال هنا.

جرّه من ثيابه القذرة وهو يتمايل أكثر هذه المرّة. جرّه نحو الفاصل الخشبي، حيث كانت المرأة ذات العجيزة تترنّح هي الأخرى.

قال الأمريكي:

ـ هل تعجبك هذه الفرنسية؟

قال حميد:

ـ لا.

ـ لماذا؟ ألا ترى أنها جميلة؟

ـ إنها أكبر من أمّي.

قال الأمريكي:

ـ ماذا تقول فيّ، هل أنا نصراني أم مسلم.

ـ أنت أمريكي. كل الأمريكيين نصارى.

كان أمام الأمريكي (سندويش) من لحم الخنزير. قضم منه شيئاً، وترك بعضه فوق الفاصل الخشبي. أخذ حميد ينظر إلى بقايا (السندويش). وذات العجيزة لا تهتمّ بهما، لأنها لم تكن تفهم ما يدور بينهما. لاحظ الأمريكي أن حميد ينظر إلى بقايا (السندويش)، فقال لحميد:

ـ ألم تأكل؟ هل تريد هذا؟

فسأله حميد:

ـ هل هو لحم الحلوف؟

ـ نعم.

ـ لا آكله.

ـ لا يهمّك. كُلْهُ، حتى تصبح سميناً مثلي.

وأردف الأمريكي بلغته:

ـ (لقد حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة. يجب أن تأكل حتّى لا تظلّ نحيفاً مثل معزة).

أمسك الأمريكي (السندويش) وحاول أن يدسّه في فم حميد بالقوّة وهو يضحك.

ـ يجب أن تأكل.

ـ طيّب، سآكله عندما أخرج.

ـ لا. كُلْهُ الآن أمامي.

تناوله حميد وعضّ منه قطعة صغيرة. أخذ يلوكها أمام الأمريكي، ضرب هذا الأخير على كتفيه:

ـ فيري كود! يجب أن تأكل، سوف تصبح قوياً ورجلاً في بضعة أيام.

عندما غادر حميد (البار)، بصق ما في داخل فمه بتقزّز، وطوّح (بالسندويش) في الساحة الصغيرة أمامه، فانفصلت شرائح اللحم عن الخبز وتشتّتت. رأى طفلين مشرّدين، يركضان. يتخاطفان (السندويش) من الأرض. أخذا يلتهمانه بنهم. صرخ فيهما حميد:

ـ إنه حرام. إنه لحم الحلّوف. لا تأكلاه.

لكنهما لم ينتبها له ولم يسمعاه. أخذا يتخاطفانه ويلتهمانه، ويلتقطان بعض الشرائح من الأرض، من الأرض مباشرة إلى الفم، دون تقزّز. دون أدنى تقزّز.

(5)

هروباً من الرئيس الذي يطوف في المدينة بسيّارته، متفقّداً نظام البيع، واحترامَ الباعة للزوم الأماكن المخصّصة لكلّ واحد. اختفى حميد في مكان معيّن، بين المرحاض العمومي ومكاتب النقّابة السياحية. بين شجيرات قصيرة كثيفة زرعها عمّال البلدية بشكل فوضوي. تعب من المشي، تعب من الصراخ، تعب من كلّ شيء. لم يأكل شيئاً، مبيعاته هذا الصباح كانت ضعيفة، إلى حدّ أنّه لم يكن في مستطاعه شراء خبزة وزبدة و(ليمونادة). إذا فعل ذلك، فإنه حتماً، سيهان هذه الليلة إهانة بشعة من أمّه وأبيه. سمع ذلك مراراً في ظروف مثل هذه.

تقول الأمّ:

ـ ماذا نفعل بهذه الفرنكات القليلة؟

تعقد ما بين حاجبيها، وتدمدم بكلمات لا يسمعها، لكنّ صوتها مع ذلك يعبّر عن غضب حقيقي. تطوف في البرّاكة. تخرج، ثم تدخل. تنظر بغضب في وجهه وفي وجه الزوج، ثم تقول بصوت مرتفع:

ـ هذه الدار خالية. واحد ينام حتى الظهر، والآخر يعود بفرنكات قليلة لا تساوي حتّى ثمن ربطة نعناع.

الأب لا يردّ، فقط يدخّن سجائر رخيصة، سيجارة تلو الأخرى، يمدّدد عضلاته فوق الحصير، ويسحب اللحاف المرقّع الوسخ فوق جسده. أحياناً يخرج عن صمته:

ـ كل يوم برزقه، دعي الطفل لحاله.

ـ أتركه لحاله. أتركه لحاله. لقد شبت قبل الأوان. لو أردت لتزوجت سيّدك.

إذ ذاك يتدخّل حميد:

ـ انظري يا أمّي، قدماي تورّمتا من المشي. أقسم لك، هذا ما حصلت عليه اليوم، اذهبي واسألي الرئيس إذا شئت، لم أبع سوى عشرين صحيفة هذا اليوم.

ـ اسكت يا شبيهاً بأبيه. إمّا أنك تظلّ نائماً في إحدى الحدائق العمومية، أو أن هناك مسمومة تأخذ منك كلّ ما تحصل عليه. سوف أذهب إلى الفقيه الحريزي لكي يكتب لك تميمة تُبعد عنك تلك الجنّية. ما أقل الرجال وما أكثر النساء! لقد كانت المرأة في السابق ذات شأن، لا تطمع في مدقع مثلك.

بسط حميد الآن حزمة الصحف تحت الظلّ بين الشجيرات القصيرة الكثيفة. كان جائعاً وجائعاً، عيناه مثقلتان بالنوم. فكّر أن ينام، أن يستريح قليلاً من كثرة المشي. ظلّ منتصف النهار مغرٍ، ظلّ الشجيرات الكثيفة المتشابكة، والتي تتدلّى من بعضها أزهار حمراء وبيضاء. كان المكان مثل غرفة صغيرة ينقصها الأثاث.

وتصوّر حميد تسرّب حيّة من بين سيقان هذه الشجيرات، لكنّه استبعد الصورة عن ذهنه، لا يمكن أن توجد حيّات هنا في هذا المكان. إن عمّال البلدية يتعهّدون كلّ شيء هنا، بالأدوية القاتلة

للحشرات والحيوانات الصغيرة المضرّة.

رغم الجوع، اضطرّ التعب حميداً أن ينام. كان الظلّ مغرياً، وكانت أصوات محرّكات السيّارات وزعيق الأبواق تأتيه في النوم مثل حلم. بعد ساعة نوم مليئة بأحلام مزعجة ورهيبة، فيها كثير من الضجيج والصراخ وازدحام كثير لسيارات وشاحنات من مختلف الأحجام والأشكال الهندسية، استيقظ حميد على إثر ركلة من الضاوي:

ـ حميد، أَفِقْ. لقد عرفت أنّك هنا.

ـ لقد تعبت كثيراً، لم أبع شيئاً ذا بال هذا الصّباح.

ـ وأنا أيضاً. القضية قضية حظّ. كلّ يوم برزقه ومع ذلك يجب ألا تنام في هذا الوقت. المطاعم والبارات غاصّة بالزبائن.

ـ إنّه وقت الأكل والشرب. وليس وقت القراءة.

ـ تحرّك أوّلاً وسترى. لقد بعت في نصف ساعة ما لم أبعه طوال هذا الصّباح.

فرك حميد عينيه. ظلّ جالساً في الظلّ على الأرض التي نتفت بعض حشائشها واصفرّت. الضاوي أمامه منحن بشكل متعب. تراجع الضاوي قليلاً إلى الخلف، رأسه يظهر الآن خلف الأغصان، المتشابكة كبطيخة. ساقاه منفرجتان، وبين الساقين المنفرجتين، وخلفهما جدار أبيض يعكس أشعة شمس الظهيرة. جمع حميد حزمة الصحف التي كانت مكوّمة تحت جزئه الأعلى ووقف وقفة غير كاملة، ثم انحنى وغادر المكان. أمسك غصن بقميصه. تمدّد الغصن في فضاء محدود بسرعة وضرب حميداً ضربة في الرأس قويّة.

قال حميد: أيّ! وسمع الضاوي يقول:

ـ انتبه، كاد الغصن يفقأ عينيك. هل ما تزال نائماً؟

مشيا فوق الحشائش الخضراء بين المرحاض العمومي ومكاتب النقابة السياحية. أخرج الضاوي سيجارة، أشعلها وهو يلوك قطعة العلك. جذب أنفاساً عميقة منها ثم مدّها لحميد:

ـ هل تدخّن؟

ـ متى رأيتني أدخّن؟ هل تمزح؟

ـ دخّن. هل ستظلّ مثل عذراء طاهرة؟

ـ لا يمكن أن أدخّن. إنّي أسمع كلام الوالدة.

ـ يلعن أبوك... لقد كانت أمّي دائماً تقول لي إذا دخّنت فإنيّ سأدعو الله أنّ يدخلك إلى الجحيم. أنا أريد أن أدخل إلى الجحيم مع بريجيت باردو ومارلين مونرو. هل تعرفهما؟

ـ لا.

ـ يجب أن ترى كم هما جميلتان في السينما، إنّهما من الكفار الذين يدخلون جهنّم.

ـ إنّك كافر، وهذا عار عليك.

عندما بلغا الحاجز القصير المشبّك الذي يفصل الحشائش عن الرصيف، قفز الضاوي فكادت قدمه تتعثّر. تبعه حميد وفعل مثله. وقفا لحظة صامتين، بعد ذلك قال الضاوي:

ـ أي اتجاه ستأخذ؟

أجاب حميد:

ـ جهة مطعم المادريغال. عندي زبائن هناك.

ـ أنا سآخذ الاتّجاه الآخر.

كان مطعم المادريغال قريباً. فكّر حميد أن يلتحق به بسرعة. الزبائن يتغدّون الآن. ربما كان نصيبه قطعة خبز ولحم. وبقايا زجاجة ليمونادة يسطو عليها في غفلة من الجرسون وهو يتهادى بأطباقه بين الموائد والمطبخ. ربما دسّ له الجرسون فخذ دجاجة في قطعة خبز. وقدّم له ذلك وهو يدفعه:

- دعني أشتغل... ألا يعجبكَ الدخول إلى المطعم إلاّ وقت العمل؟ هذه المرّة إذا عدت فإنّي سألطخ وجهك بصحن.

على بعد أمتار رأى عائلة من الأجانب تدخل المقهى. كانت مع العائلة فتاة في سنّه شبه عارية، جميلة جدّاً، تقف وتضحك مع صبيّ صغير يبدو أنّه أخوها. تشهّاها حميد لنفسه. وقف خلفها وأخذ ينظر إليها. دخلت إلى المطعم فأغلق الباب أوتوماتيكياً. ظلّ واقفاً لحظة ينتظر ريثما تجلس العائلة. الجرسون يكون غاضباً في مثل هذه الحالة. يكرّر أيضاً:

- لا يعجبكم الزحام معنا إلاّ في هذا الوقت، ماسح أحذية! بائع صحف! بائع يا نصيب! بائع أزهار! تفو. لم يعد هذا عملاً.

ظلّ حميد واقفاً تحت لفح شمس الظهيرة. اتّكأ على عمود كهربائي، وأخذ يراقب الزبائن من خلف الزجاج الذي تغطيه شراشف وستائر شفّافة. المطعم غاصّ دائماً في مثل هذا الوقت. لا شكّ أن اليهودية التي تملكه أصبحت غنيّة. ومع ذلك فزوجها الطويل القامة ما زال يعمل سائق شاحنة ضخمة. إنّهما يجمعان المال بأية طريقة. لا يمكنهما أن يتوقّفا عن جمع المال، هي وحدها تدير (البار) والمطعم، تضع نظارة على عينيها. تدخّن وتتحدّث إلى الزبائن، وتضغط على أزرار الآلة الحاسبة. لاحظ أنّ النساء يقفن

خلف (البار)، وأمامه يسكرن ويعانقن أيّاً كان. وتمتلئ بهنّ سيّارات الشرطة في نهاية الأمر. تذكّر حميد شخصين كانا يتحدّثان على رصيف مقهى (ميلك ـ بار).

قال الأول:

ـ لا أدري لماذا لا يمكن لمغربيّة أن تدير هي أيضاً حانة خمر.

ـ إنّ القانون يمنع ذلك، نحن في دولة مسلمة.

ـ ولكن القانون يسمح للمغربيات باحتراف البغاء، يسمح لهنّ بتعاطي الخمور، أغلبهنّ يملكن أوراق العمل.

ـ الدّولة تسمح لهنّ بذلك، ولكنّها لا تسمح لهنّ بإدارة حانة. ذلك قانونهم.

ردّد حميد وهو متكى على العمود الكهربائي كلمة «قانونهم». ما هو القانون؟ إنّه لا يعرف. المهمّ أن يبيع أكبر عدد ممكن من الصحف في هذا المطعم، أو أن يخرج على الأقلّ بطعام. تقدّم نحو الباب، دفعه ببطء وحذر. كانت الأطباق قد صفّت فوق الموائد. بعض الزبائن يأكلون، والبعض الآخر يحملون (الطرشونات) إلى الأفواه يمسحونها بطريقة مؤدّبة. البعض الآخر يرفعون الكؤوس وهم يمضغون أو لا يمضغون. هناك رجل واحد في الزاوية يضع نظّارة على عينيه منهمك في المضغ والقراءة تعرّف عليه حميد. إنه أحد الشغوفين بمطالعة الصحف، لا يرى إلاّ وهو يتأبّط حزمة منها. يدفع دائماً أكثر من ثمن الجريدة. تسلّل حميد جهة (البار)، رأته اليهودية السمينة من تحت نظارتيها، ابتسمت له، أعادت له الأمل، ربّما لن يستطيع الجرسون طرده. قالت:

ـ تعال هنا، هل تغذّيت؟

ـ لا، لم آكل بعد.

ـ سوف تتغدّى معي في البيت.

غادرت الآلة الحاسبة. وأشارت له من خلف (البار) أن يتبعها إلى المطبخ. تبعها حميد. هذه فرصة طيّبة جدّاً. قالت اليهودية السمينة:

ـ هل تستطيع حمل هاتين القفتين إلى البيت؟ سأدفع لك نصف درهم وسأغدّيك.

كانت القفّتان مليئتين بالخضر والفواكهه، اقترب حميد منهما، وحاول أن يختبر قوّته. رفع القفّتين بصعوبة، قال وهو يتظاهر بأنّه قادر على فعل ذلك:

ـ نعم، أستطيع.

ـ أليستا ثقيلتين؟

ـ لا.

ـ يبدو أنّك لا تقوى على حملهما، إذا كنت لا تستطيع فإنّي سأحاول أن أجد شخصاً آخر. إنّهم مشغولون في المطبخ فقط.

ـ بلى، أستطيع. انظري.

يكابد كثيراً لرفعهما مرّة ثانية، فيكاد جسمه يسقط أرضاً. يصمد أكثر. يستعين بطاقة نفسية لحمل القفّتين إلى أعلى قليلاً، ثم يقف منتصباً. يداه تؤلمانه لأنّ العروات الأربع خشنة وبارزة النتوء. قالت اليهودية السمينة:

ـ طيّب، أخرجهما وانتظرني في الخارج ريثما أصفّي حساباً. هل تعرف البيت؟

ـ لا. أعرف العمارة فقط، تلك التي توجد عند المخبزة في رأس الشارع.

ـ طيّب. أخرج القفّتين وانتظرني.

أخرج حميد القفّتين وهو يتمايل. كان قد وضع حزمة الصحف في إحداهما. وقف عند باب المطعم، وأخذ ينظر في خوف يميناً وشمالاً، لو ضبطه الرئيس لأشبعه لكماً ورفساً.

«يا ولد الـ. . . هل أنت بائع صحف أم حمّال؟ سأصفّي معك الحساب هذا المساء. إذا لم تعجبك المهنة فاختر أن تكون حمّالاً».

خاف حميد أكثر. انتابت جسده قشعريرة. تمنّى لو تخرج اليهودية السمينة بسرعة. انفتح الباب وظهر جسدها، كانت تتحدّث إلى أحد الزبائن وهي تبتسم: «أكلة شهية». مشت أمامه دون أن تعيره انتباهاً. تبعها حميد وهو يجرّ جسمه بتعب. القفّتان ثقيلتان، كان يتمايل. خشي أن تلتفت اليهودية فتراه على تلك الحالة. ثمّ تغيّر وجهة نظرها في قوّته. لكنّها لم تلتفت طوال المسافة التي كانت قصيرة. كانت العمارة قريبة من المطعم. وكان بيتها في الطابق الأوّل. ربّما انفلت كلّ ما بداخلهما، لكن عندما بلغا باب العمارة قالت اليهودية:

ـ يكفيك هذا، انتظرني هنا.

صعدت إلى فوق. لم تنزل، لكن الخادمة هي التي نزلت، تناولت منه القفّتين، وقفزت الدرجات بخفّة، إنّها قوية مثل غولة. كان حميد وراءها يلهث من الجوع والتعب، وجد الباب مفتوحاً ودخل دون أن يأخذ الإذن بذلك. لكنّ اليهودية أيضاً لم تعر اهتماماً لذلك. أمرت الخادمة بأن تقدّم له صحناً من اللوبيا بقطعة من قوائم

البقر. منذ شهور لم يأكل وجبة مثل هذه، ازدرد كل ذلك في لحظة وجيزة، أخذ نصف الدرهم، وعندما كان يغادر المطبخ، دسّت له اليهودية حزمة ثياب قديمة.

ـ خذ هذه الأثواب، وغيّر خرقك البالية الممزّقة تلك. هل يشتغل أبوك؟

ـ لا.

ـ وأمّك؟

ـ لا.

ـ يمكنها أن تعمل خادمة مثل باقي النّساء، أم أنها كسولة وبدوية لا تتقن أيّ شيء؟!

أطرق حميد، لم يجب، إن أباه وأمّه كلّ شيء. هما كلّ شيء. كسولان وبدويان، ومهاجران وكلّ شيء. تأبّط الحزمة وأغلقت اليهودية الباب دونه. عندما غادر باب العمارة أوقفه شرطي يجرّ درّاجته الهوائية فوق الرصيف، وقد تدلّى مسدّسه واتّسخت بدلته وبهتت.

ـ إيه أنت! تعال، ماذا تحمل تحت إبطك؟

ـ صحف.

ـ الأشياء الأخرى تحت إبطك؟

ـ ثياب.

ـ أرني تلك الثياب.

مدّ حميد الحزمة للشرطي. أخذ هذا الأخير ينشرها في الفضاء أمامه ويتأمّلها قطعة قطعة، ثلاثة قمصان وسروال. خطرت للشرطي فكرة:

ـ من أيّ سطح عمارة سرقتها؟

ـ والله لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية، إنها تسكن في هذه العمارة.

ـ اسكت يا كلب. إني أعرف أمثالك، الشكوى في المركز كثرت من كثرة سرقة السطوح. قل لي من أيّ سطح سرقتها؟

ـ أقسم لك. لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية.

ـ اسكت، لا تفتح فمك القذر.

جمع الشرطي الثياب تحت إبطه. ترك الدراجة متكئة على عمود كهربائي. وقال لحميد:

ـ انتظر هنا، سأتلفن للمركز حتّى تأتي سيارة الشرطة لتأخذك أيّها اللص.

دخل الشرطي إلى أقرب محلّ ليتلفن. وقف حميد لحظة يفكر فيما يفعل. لم يكن في مستطاعه إقناع الشرطي، إنّهم قذرون، فهم أن الشرطي لا بدّ أن يبتزّ منه تلك الأثواب. أخذ يجيل النّظر حوله، ثمّ أسعفته البديهية وأطلق رجليه للريح. كان يركض لينجو بنفسه.

(6)

أمام مقهى «الأركاد» وقف حميد ينظر إلى الطاولات على الإفريز. الناس كالحلزونات الملوّنة حولها، ليس هناك أيّ مقعد فارغ. يشربون البيرة والليمونادة ويأكلون الذرة التركية المقليّة. بعضهم يمصمص قواقع الحلزونات، البعض الآخر يحمل الصحن ليشرب إدام الحلزونات المتبقّي في قعرها، والذي عادة ما يكون مختلطاً بأوراق الزعتر. حميد ينظر إليهم: عالم غريب، يتحدّثون لغة أو لغات لا يفهمها، لكنّه يستطيع أن يميّز بعضها، في المنطق على الأقلّ. دار قبل لحظة على الزبائن، في الخارج وداخل المقهى. لا أحد يريد أن يشتري صحيفة. مرّ أحد زملائه من خلفه، وضربه على كتفه. قال حميد:

- لا تتعب نفسك، لا أحد يريد أن يقرأ.

لم يكترث له زميله، لكنّه قال:

- كلّ واحد وحظّه.

أخذ يطوف على الطاولات. دخل إلى (البار)، ثم اختفى، كان حميد يخرج منه في العمق، لكن من يدري؟ كلّ واحد وحظّه. لم يخرج زميله من الباب الذي دخل منه، يبدو أنه خرج من الباب الآخر. أخذ حميد يتمشّى قليلاً، لأنّه لم يعرف ماذا يفعل بنفسه.

قدماه تعبتا كثيراً. توقّف عند مكان معيّن، وجلس على الطوار بين سيّارتين. مدّد قدميه وأخذ يتأمّل البنزين الذي يتقاطر من أسفل إحدى السيّارتين، بحيث كوّن جلطة سوداء تنتشر ببطء وتتسرّب إلى حافة الطوار. فكر لو أنه أشعل عود ثقاب، فتحترق السيّارة، ثم الأخرى فالأخرى. لكن بدا له أن ذلك غير ممكن، ومستحيل. لو كان الشارع خالياً لكان في إمكانه أن يفعلها، تحسّس جيبه. أدخل يده فيه. وأخذت أصابعه تلهو بالقطع النقدية داخل الجيب. إنّها كثيرة العدد لكنّها قليلة القيمة. ما يزال البنزين يتقاطر، قطرة فقطرة. والقطرة تلو الأخرى تملأ النهر. سمع صوت أقدام خلفه. توقّفت القدمان. أحسّ أن شيئاً غير عاديّ يحدث وراءه. التفت بسرعة فوجد زميله يكاد يهوي على قفاه بصفعة قويّة وهو يكتم ضحكة مألوفة.

ـ ماذا تريد أن تفعل يا بغل؟

ـ لو لم تنتبه لكنت قد سقطت على خطمك.

ـ هل تقوى على فعل ذلك؟

ـ ولم لا؟

ابتعد زميله في حذر جهة الحائط، وصحفه تكاد تنزلق من تحت إبطه. وقف حميد بتلكّؤ.

ـ لم تفعل لي شيئاً، تعجبني تلك القفا.

اقترب حميد منه ببطء متظاهراً بأنّه لا يريد به شرّاً. كان جسد الآخر ينزلق فوق الجدار. يتحرّك في كلّ اتّجاه. قال حميد:

ـ لا تخف، لن أصيبك بسوء. ما لك تحتكّ بالحائط كمن به جرب؟

ـ أقسم إنّك لن تؤذيني.

قال حميد:

ـ أقسم لك.

ثم انقضّ على زميله ووضع أصابع يده على رقبته وضغطها. تغيّر لون وجهه مرّات وسعل. انسحب حميد وهو يضحك في انتصار:

ـ تعلّم هذه المرّة كيف تصفع الناس على قفاها.

قال الآخر:

ـ كنت أريد أن أمزح معك.

ـ تعلّم ألاّ تمزح بتلك الطريقة.

ارتفعت أصوات حوالي سبعة من الأمريكيين بالغناء. كانوا على إفريز مقهى «الأركاد» وأمامهم العديد من زجاجات البيرة الفارغة والمملوءة. الناس يلتهمون الذرة التركية وأجساد الحلزونات الطريّة ويضحكون كأنهم في عيد. أجانب ومغاربة وأجنبيات. المغربيات لا يجلسن على الإفريز، يوجدن داخل البار يشربن أو يبتززن بعض الزبائن، أو يبكين على ماضيهنّ الريفي. من الريف مباشرة إلى الكحول، إلى السيجارة، إلى صالونات الحلاقة والتزيين، إلى لوك العلك. استمرّ الجنود الأمريكيون في الغناء. مدّ أحدهم يده إلى زجاجة البيرة، رفعها من فوق الطاولة وأفرغها على رأس أحد أصدقائه. وقف الآخر متثاقلاً ومحاذراً، لكنّ آثار الشراب كانت بادية عليه.. . كانت بادية عليهم. أخذ ينفض عن جسده ذلك السائل الذي بلّل بعض ثيابه. توقف غناؤهم. الناس أيضاً توقّفوا عن التهام الذرة التركية والحلزونات. انشغلوا بالنظر إليهم. عاد الأمريكي المبلّل إلى مكانه فارتفع غناؤهم من جديد. بعض الزبائن أيضاً عادوا

إلى الانشغال بأنفسهم. لكنّ الأمريكي المبلّل، فاجأ صديقه الأول وأفرغ عليه زجاجة البيرة. وقفا وتدافعا بالأيدي.

قال حميد:

ـ سوف تبدأ المعركة.

أجاب رفيقه:

ـ ذلك ما نتمنّاه، اشتقت لمعركة رعاة البقر أولئك.

ـ إذا بدأت فلن تنتهي إلاّ بالدم.

ـ وماذا يهمّنا؟ فليموتوا جميعاً.

ما زال الأمريكيان يتدافعان بالأيدي. أصدقاؤهما يضحكون بصوت مرتفع، ويشجعّونهما على ذلك. ابتعد الأمريكي الأول عن الطاولة باتجاه الرصيف وهو يتمايل. تبعه الآخر وهو يجرّ رجليه بصعوبة. تشابكت أذرعهما من جديد. وتبادلا كلمات فيها نوع من الغضب. لكن حميد لم يفهمها، يبدو أنّها شتم. أثارا انتباه كل الزبائن فأخذوا يعلّقون أو ينتقدون المشهد. رجع الجنديان إلى مكانهما بالقرب من رفاقهما. لكنّ أحدهما دفع الآخر، فسقط كلّ ما هو على الطاولة. أريقت سوائل وابتلّت ثياب وتشابكت أيد. أطلّت اليهودية السمينة، مالكة (الأركاد) برأسها، وأشارت إلى الجرسون:

ـ هيه، أومحنّد! أنقذ الموقف.

لا بدّ أن يلبّي أومحنّد طلب سيّدته. قال أومحنّد:

ـ طيّب مدام!

دخل أومحنّد إلى المطبخ وهو يجري، خرج كذلك وهو يركض، بمكنسة طويلة في يده، أخذ يهوي بها على المجموعة، يضرب في كلّ اتّجاه. ضحك بعض الزبائن، علّق البعض الآخر:

ـ شيء جميل، الجنود الأمريكيّون يريدون أن يستعمرونا.

وقال مغربي آخر لصديقه:

ـ لقد استعمرونا بالفعل.

ما يزال أومحنّد يضرب الرؤوس والأذرع والأوجه وكلّ شيء. تشتّتت المجموعة على الرصيف وعلى الطريق. تعثّر جندي سكران فسقط على وجهه. ظهرت بعض الرضوض بسرعة على الوجه، تحامل على نفسه. أخذت المجموعة تتلاحم من جديد. الأرجل تلوتي باسترخاء، والأذرع تتحرّك في الفضاء. وقف أومحنّد بعيداً منهم قليلاً ومكنسته الطويلة تدور في الفضاء. أصابت المجموعة نزعة الانتقام من أومحنّد. اقترب أوّلهم بسرعة سكران، لكن أومحنّد دفعه بالمكنسة. جاءته الإغاثة من الخلف، إذ خرج طباخ وكنّاس، في أيديهما مكنستان. أخذ الثلاثة يلوّحون بالمكنسات في الفضاء، فتشتّت الأمريكيون من جديد، وارتفعت أصوات الزبائن.

قال حميد:

ـ إنّها معركة حقيقية.

ردّ زميله:

ـ إن الأمريكيين ليسوا أقوياء الأجساد لأنّهم يأكلون لحم الخنزير. يقال إن في لحم الخنزير دودة تنخر القوة الموجودة في الجسم.

ـ ولكني رأيت كثيراً من الناس يأكلونه.

ـ إذا تشاجرت معهم تستطيع أن تهزمهم.

انفلت أحد الأمريكيين من أكلة الخنزير وشاربي الخمور، لعنهم الله، وضرب الطبّاخ على قفاه بلكمة ألقت به أرضاً ـ رغم أنّه

أكل الخنزير. تفو - لكن أومحنّد فاجأه بالمكنسة وضربه عند الركبتين فوقع حيث لم يعلم أنه وقع، لكنه تحامل على نفسه، وظهرت في رأس الشارع سيّارة الشرطة العسكرية التابعة للقاعدة الجوية في رأس الشارع، ابتهج حميد لذلك، سوف يلتقطون هؤلاء المخمورين، مثلما تلتقط الكلاب الضّالة. فرّ أحد الجنود بنفسه ودخل ليختبئ في مرحاض عمومي. قال حميد:

- إنّهم يردفونهم في السيّارة بطريقة رائعة.

- سوف ترى الهراوات الآن، من لا يريد أن يصعد، يضرب في كلّ مكان.

- لقد قيل إنّهم يدخلونهم في زنزانة باردة حتى يكادوا يموتون من البرد.

- لا. إنّهم يحبسونهم في غرفة كبيرة يوجد فيها تلفزيون. يأكلون ويشربون أحسن منّا.

- إنك تكذب. لا يمكن أن يكون سجنهم بتلك الصورة.

- اسأل من تريد. إنّ سجنهم أفضل من سجننا.

- الله! كم أتمنّى لو دخلت سجنهم. إنّهم يقدمون في سجننا خبزاً ناشفاً وطعاماً تتبرّز فيه الفئران.

- يع. تفو! كيف يكون هذا الطعام؟!

- والصراصير والجرذان. ويبصق فيه الطبّاخون ويتمخّطون.

- يع، تفو! لا تصف لي ذلك.

- الله يدخلك السجن.

- الله يدخل تركتك.

وقفت سيّارة الشرطة الأمريكية، البعض من المجموعة لم ينتبه لها. نزل ثلاثة من الشرطة طوال القامة بلباسهم الأبيض كاللقالق. هراواتهم في أيديهم وقد تدلّت قبعاتهم وعدساتهم. أمسكوا بأربعة جنود، أدخلوا ثلاثة منهم إلى السيّارة بلا عنف، لكن الرابع ذا الجثة الكبيرة السمينة بفعل أكل الخنزير وشرب البيرة (يع، تفو. لعنة الله عليه!) رفض أن يصعد، اهتمّ به واحد فقط، رفع هراوته وضربه على كتفه فصرخ الجندي متألّماً، لكنه مع ذلك رفض أن يصعد إلى السيّارة. أعاد الشرطي الضربة عند الركبتين فتهاوى المخمور أرضاً، حمله الشرطيان وألقيا به داخل السيّارة، بعد ذلك جيء بالبعض الآخر بسهولة. تحرّكت السيّارة، في حين بقي الجندي المختفي في المرحاض يطلّ برأسه، وقد حاول أومحنّد أن يُفهم الشرطة أن هناك مخموراً آخر مختبئاً في المرحاض. لكنّهم لم يهتمّوا به. فكّر أن يتعقّبه ويُشبعه ضرباً بمكنسته، لكن اليهودية السمينة مدّت رأسها وصرخت فيهم:

ـ ادخلوا الآن، ذلك يكفي.

قال أومحنّد:

ـ مدام، لا يزال واحد منهم مختبئاً في المرحاض.

ـ ادخل، ليس ذلك شغلك. إذا كان قد سكر فاللصوص والمومسات سوف يحتفلون به هذه الليلة.

بعد ذلك، استمرّ الزبائن في مصمصة الحلزونات وأكل الذرة التركية وشرب الليمونادة والبيرة. افترق حميد عن رفيقه. المساء أخذ يصخب، ولا شك أنه سيكون هناك إقبال على قراءة الصحف.

(7)

بعد إلحاح الأم على أن حميداً أصبح رجلاً، وأنه قادر أن يشتغل بنفسه كباقي الرجال، ذهب الحسن إلى السوق العتيق، واشترى صفائح وقصديراً وخشباً ومسامير. ألصق شيئاً بشيء في حوش البرّاكة وقالت الأمّ لحميد:

ـ الآن أصبح لك بيت مستقلّ، لا بأس أن ينام معك فيه أخ لك.

كان الشيء الذي بُني في الحوش أشبه بمسكن كلب، وفيه مع ذلك كوّة ينفذ منها النور، وباب قصير لا يتّسع لقامة حميد. لكنّ المقدّم اكتشف الأمر، طرق الباب ذات صباح.

ـ لقد بنيتم برّاكة. وهذا ممنوع بدون رخصة.

ـ إنّها ليست برّاكة، مجرد مخبأ ينام فيه الطفل لأنّه قد كبر.

ـ لا يهمّني الطفل أن يكبر أو أن يتقلّص حتّى يصبح في حجم قملة، المهمّ أن أيّ بناء لا يتمّ إلا بالترخيص من الدولة، افتحي الباب سوف أدخل لأرى ما فعلتم.

فتحت الأمّ الباب وأفسحت للمقدّم الطريق. إنّه يمثّل الدولة، مشى نحو المسكن الصغير، ودار حوله يتفحّصه.

ـ إنّ هذا ليس مخبأ كما تقولين. إنّها برّاكة بالفعل تتّسع لأكثر من اثنين. لا بد أن يكون لها ترخيص. سوف أعود غداً أو بعد غد لأجدكم قد هدمتموها.

ـ أرجوك السي المقدّم.

ـ لا سي فلان ولا هم يحزنون. القانون هو القانون، ويجب أن يطبّق على الجميع. أنتم خالفتم القانون، تنتظركم الذعيرة أو الحبس.

ـ سيدي، ما تقوله هو الحق.

ثم خرج المقدّم، كان الزوج داخل البرّاكة، لم يستطع أن يخرج لمواجهة الرجل الذي يمثّل الدولة. خاف أن يقتاده إلى المقاطعة ويحبسه هناك. وعندما تأكّد من أنّ المقدّم ابتعد عنه كثيراً، أطلّ برأسه من الباب. قالت الزوجة:

ـ هل سمعت كلّ شيء؟

ـ سمعت كل شيء، أنت السبب في هذه المصيبة.

ـ ليست مصيبة ولا أيّ شيء، كلّ الناس تبني براريك، عندما يعود دسّ له عشرة أو عشرين درهماً. إنه يحبّ الرّشوة.

ـ وإذا لم يقبل؟

ـ ليس هناك من واحد في المملكة يرفض الرّشوة.

ـ يمكنك أن ترشوه بتلك الدراهم العشرة.

ـ الرجل أولى من المرأة لفعل ذلك.

ـ نتمنّى ألاّ يأتي بأعضاء القوات المساعدة لتهديم كلّ مسكننا.

ـ فمك لحسه كلب، لم يفعل ذلك أبداً؟

ـ لقد فعلها مراراً.

ـ لكن مع براريك لا تحمل أرقاماً. نمرتنا مسجّلة في الأوراق عند الدولة 2834.

ـ إنّك تحفظين هذا الرقم كما لو كنت تحفظين رقم ثروة.

ـ هذا المسكن هو ثروتنا. وإذا هدم فسننام في العراء.

دفع الحسن الباب الواطئ بقدمه. أحنى قامته ثم غادر الحوش، مشى كالتيس ورجلاه تغوصان في التّراب. كادت تصدمه درّاجة انحرفت إلى اليسار، وهي تغوص في الرمل، الرمل وحده استطاع أن يخفّف من سرعتها. توقّف عند باب أول دكّان، كان هناك شخصان يلعبان (الدامّة) لتمضية الوقت. كلاهما عاطل. أحدهما متقاعد، حارب مع فرنسا في الهند الصينية أوائل الخمسينات، أما الثاني فعاطل مسلول يعيش على الدقيق والحليب الأمريكيين، وقد صنع من أحد الأكياس قميصاً، بحيث ارتسم على ظهره كفّان متصافحتان (أمريكا تصافح هذا العاطل المسلول، إنّ الرئيس الأمريكي يصافح كلّ عاطل في هذه البراريك، ويبتسم لكلّ مسلول أو مشلول. وأيضاً الأمريكيون يلقون نفايات القاعدة الجوية، فيتسارع إليها كل ساكني البراريك ليلتقطوا الأجبان المدوّدة وبقايا المصبّرات القذرة، وقطع الخبز المبلّلة بسوائل لا يدري أحد ما هي، ويلتهمون كل ذلك بنهم كبير وهكذا تلتقي الكفّ بالكفّ فتتصافحان ويبتسم الرئيس الأمريكي في مودّة لكلّ عاطل ومسلول ومشلول وأجرب. . . إلخ).

وقف الحسن فوق رأسيهما وهما منهمكان في لعب الدّامة، شعر بظلّه فوق اللوح، رفع المتقاعد رأسه.

ـ اجلس الحسن لتلعب، لقد أوشكت أن أهزم هذا المسلول.

قال المسلول:

- سوف ترى من الذي يهزم الآخر، اجلس سوف تقابلني.

قال الحسن:

- ليست عندي رغبة في اللعبة.

تجاوزهما إلى البقّال، دون أن يسلّم عليه، جلس فوق صندوق وهو عابس. قال البقّال:

- ما لك؟ هل تشاجرت معها اليوم أيضاً؟

- لا، ليس معها، لقد أصبحت أتركها تنبح كالكلبة دون أن أعيرها اهتماماً.

- ذلك أفضل، أنا أيضاً تعبت من ضرب تلك العرجاء اللّعينة، لقد ندمت على ذلك اليوم الذي تزوّجتها فيه وأنجبت منها.

- النساء كلّهن يتشابهن. المرأة ضلع أعوج ذلك ما قاله سادتنا الأوائل.

وقف صبيّ أشعث ومتّسخ أمام الحسن والبقّال وطلب زجاجة ليمونادة باردة. أخرج البقّال واحدة من سطل مليء بماء البئر الذي حفره في حوش برّاكته، تلذّذ الصبي بتلك الليمونادة المحلّية الرخيصة التي غالباً ما تتجمّع الأوساخ في قعرها. ثم غادر المكان فوراً ممتطياً درّاجة قديمة، وأخذ يضغط على دواستيها بقدميه. الحافيتين المصابتين بالكدمات في كلّ مكان، وقال الحسن:

- لقد زارنا المقدّم قبل لحظة.

- من أجل البرّاكة؟

- نعم، الأخبار تتسرّب بسهولة، لقد اقترحت عليّ الجيفة أن تدفع له رشوة.

قال البقّال وهو يضحك:

ـ إن الجيف لا تكذب. يجب دائماً أن نستشيرهنّ، لكن ليس في كلّ شيء. من اتّبع طريقهنّ سقط في الهاوية.

قال الحسن:

ـ لكن لا أدري إذا كان المقدّم سيقبل رشوة.

ـ اضربها على حسابي، عندما يمرّ من هنا سوف أتكفّل أنا بذلك. هات خمسة عشر درهماً.

ـ ليس معي الآن. إذا عاد الطفل في المساء فسوف آتيك بها.

ـ عليك أن تعجّل بذلك. المقدّم رجل لا يحبّ المزاح، وهو جاف وقاس.

ـ ذلك ما أسمع عنه.

ـ سمعت أم لم تسمع، هذا ما أقوله لك. وإلاّ فإنّه سيهدم البرّاكة ويأخذك إلى المقاطعة، حيث تحبس هناك على الأقلّ مدة أسبوعين لأنّك خرقت القانون.

سرح الحسن ببصره بعيداً، في سماء زرقاء وفضاء فسيح أزرق فوق البراريك. استمع لزقزقة الطيور وهي تحوّم أمامه فوق رأس شجرة نابتة في حوش إحدى البراريك. إنّه لا يملك شيئاً الآن، بضعة دراهم فقط تبقّت له، بعد أن اشترى هذا الصباح علبة سجائر رخيصة. كلّ ما ادّخره ابتنى به البرّاكة التي هي في حجم مسكن كلب. وذلك لإرضاء الجيفة التي تصرّ على أن يسكن ولدها وحده. لكي تزوجه بجيفة مثلها... جيوبه مثقوبة دائماً، والفلوس لا تعرف الاستقرار فيها. لكن، متى اجتمعت لديه الفلوس؟ الأفواه تأكل وتأكل بنهم، تلتهم كلّ شيء. في السابق، وهو أعزب، كان يتمتّع

قليلاً. كان يستطيع أن يدخن، وأن يشتري أثوابه من الخردوات، وأن يسكر، وأن يذهب إلى الماخور الذي يعجّ بالنّساء، لم يكن يستريح إلاّ لامرأة واحدة من قريته، متزوّجة من رجل يبلغ الثمانين، هربت من قريتها بعد أن مات، لا يزال الحسن يذكر صورته الآن، وصورتها كذلك. في القرية، كانت تسوق بقرتين وثلاث عنزات كلّ صباح، تسلّمها لأحد الرعاة وتعود إلى البيت لتبقى إلى جانب ذلك العجوز الذي كان لا يكاد يغادر فراشه، لكنّه في نهاية الأمر مات، وفرّت المرأة لكي لا تتزوّج برجل آخر في مثل سنّه.

قال البقّال:

- هل تضيّع فلوسك في القمار أم تخسرها على امرأة؟ إنّك (مزلوط) معدم؟

- متى كنت ثريّاً؟ إنّي دائماً مزلوط. أنت تعرف أني لا أشتغل. لو كان عندي رأسمال بسيط لفتحت حانوتاً لبيع الفحم، اللهم العمش ولا العمى؟

- لقد أصبح ابنك يشتغل.

- كلّ ما ربحه دفعته الجيفة ثمناً لتلّك البرّاكة التي ستهدم على رؤوسنا.

قال البقّال:

- المهم أن تأتيني بالخمسة عشر درهماً. الدّولة قلبها واسع. كلّ شيء يسير بالفلوس.

(8)

تناول المقدّم خمسة عشر درهماً، طالب بأكثر من ذلك، تظاهر للبقّال بأنّه قام بخرق القانون من أجل الصداقة فقط.

ـ أنت تعرف أن هذا ممنوع، لو علم الخليفة بذلك لأوقفني عن العمل. ولكنّي أتحمّل كلّ شيء من أجل ناس طيّبين مثلك، من أجل أصدقاء. منذ كم سنة ونحن صديقان؟

أجاب البقّال:

ـ لا أذكر، ربّما قبل دخول الأمريكان بسنوات قليلة، أيّام المجاعة، يوم كانت الهليكوبترات تلقي علينا بقطع الجبن والشيكولاته والخبز والمنشورات التي لم يكن أحد يعرف قراءتها.

ـ إنّ ذاكرتك قوية، أمّا أنا فقد نسيت ذلك.

ـ ولكنّك مع ذلك لا تنسى الصداقة.

قال المقدّم:

ـ لقد كثر هؤلاء الذين يخرقون القانون، كلّ يوم تبني برّاكة جديدة، لكنّ الأخبار تصل بطريقة أو بأخرى.

ـ أعرف أنّ لكم أعيناً وآذاناً في كلّ مكان.

وعندما انصرف المقدّم، نادى البقّال الحسن، ضربه على كتفه:

ـ يمكنك أن توسّع تلك البرّاكة الآن. لن يقول شيئاً، وإذا ما تغيّرت الظروف، ربّما حصلنا لك على رقمها مقابل رشوة أخرى.

ـ إنّ ذلك ممنوع.

ـ من قال لك ذلك؟ أنت لا تعرف المقدّم. إنّه من أخطر المقدّمين في المقاطعة، يستطيع أن يبيع الخليفة وحتّى الباشا دون أن يسمع أحد بذلك. أنا أعرفه منذ سنوات، لقد كان مجرّد حشاش مقامر. وها هو الآن يعمل مع الدّولة، هل تعتقد أنّه وصل إلى ذلك بسهولة.

بعدها خرجت الزوجة عند الجارات. وتحدّثت عن البرّاكة الجديدة، وعن كون المقدّم أصبح صديقاً لها. وقالت امرأة لأخرى همساً: «إنها حمقاء. هل يهتمّ المقدّم بامرأة حافية عارية شمطاء مثلها»؟.

وقالت الزوجة لجاراتها وهي تكذب:

ـ لقد أعطاني رقماً جديداً لبرّاكة ابني. ووعدني برقم آخر، ستصبح لدينا ثلاثة أرقام.

قالت امرأة:

ـ يا أختي تحدّثي لنا معه، منذ ستّة أشهر لم يحصل زوجي على نصيبه من دقيق التعاون الوطني.

وقالت امرأة أخرى:

ـ وأنا كذلك، ولداي كنسا كلّ المدينة. فهما يشتغلان مع البلدية مقابل الدقيق والزيت، ولكنّهما لم يحصلا على شيء لحدّ الآن.

قالت زوجة الحسن:

ـ عندما أزوره في المقاطعة سوف أخبره بكلّ ذلك.

وقالت واحدة:

ـ الأفضل أن تخبريه عندما تكونان على انفراد. وغمزت صديقتها.

رأت الزوجة الحسن قادماً نحو المجموعة فانفصلت عن النساء، خافت أن يسمع حديثها فيدسّ رأسها بين رجليها، ويملأ فمها بالتراب حتّى تغلقه نهائياً، وتكّف عن التبجّح والكذب. دفعت الباب ودخلت. تبعها الحسن وقد بدا عليه نوع من الارتياح، لقد نجا من الحبس الآن، الفلوس تستطيع أن تحقّق كلّ شيء حتّى المستحيلات، الارتياح أيضاً كان بادياً على الزوجة. ابتعدت عن الحسن وسط الحوش واتّجهت نحو المجمر، وأفرغت فحماً، كان أحد الطفلين يصفع أخاه ويهدّده بمعاودة ذلك إذا ما بكى.

كان الطفل الأصغر يبكي في صمت، خلف البرّاكة، وقالت الزوجة إن عليها الآن أن تهيّئ (برّاد) شاي لنفسها وللحسن.

ـ اذهب واشتر ربطة نعناع.

ـ أين ولداك؟ نادي على أحدهما ليتشريه.

وصرخت:

ـ فضول، أين أنت؟

أتاها الجواب مكتوماً من خلف البرّاكة:

ـ نعم. أنا هنا.

ـ ماذا تفعل وراء البرّاكة يا ولد (الخانز)؟

قال الأب:

ـ هل تعتقدين أنّ في الدنيا من هو (أخنز) منك؟

ـ اسكت أنت. انظر إلى حالتك واسكت يا عيفة الرجال.

وعندما وقف الصبيّ أمامهما حافياً، وخرق معلّقة بجسده كأنها ثياب. قالت الأمّ للأب:

ـ انظر إلى ولدك. لو كانت فيك نفس لكسوت أولادك.

وللطفل:

ـ اذهب واشتر نعناعاً وتعال لتشرب الشاي، ناد أخاك إذا وجدته في طريقك. لا تكثر من الخروج هذه الأيّام، لا أريد شجاراً مع الجارات، فالأطفال أصبحوا يتشاجرون في كلّ وقت كما لو كان قد أصابهم السعار.

قال الطفل:

ـ إنّه خلف البرّاكة يلعب في الظلّ.

وعندما انصرف الطفل انشغلت الأمّ بإشعال النّار في المجمر، لفّت قطعة شمع داخل خرقة بالية وأشعلت عود ثقاب. بعد ذلك أخذت تنفخ بفمها على النّار. ثم أتت بنافوخ مثقوب لا يكاد يخرج منه الهواء، وبحركة آلية استجاب لها النّافوخ، اشتعلت النّار، ووضعت الأمّ (البرّاد) فوق المجمر.

قالت للحسن:

ـ هل تعتقد أنّ المقدّم سيعود إلينا ليطالبنا بشيء آخر؟

ـ لا أعتقد. إنّه صديق الأعرج البقّال.

ـ ربّما يتآمران معاً علينا.

ـ لا أعتقد... إنّ الأعرج يحبني كثيراً.

ـ يجب ألاّ تثق بالبشر.

ـ عليك ألاّ تكوني كذلك. إنّ وضع الثقة في النّاس هو كلّ شيء، وبعد ذلك، كلّ شاة، غداً يوم القيامة، سوف تعلّق من قائمتيها الخلفيتين.

ـ هل تعرف يوم القيامة أيّها السكير؟ إنّ الله سيشوي لحمك عندما تكون بين يديه.

ـ إلعني الشيطان، يبدو أنّنا لن نشرب الشاي في راحة.

ـ ومتى شربْته أنا في راحة؟ لقد جعلت طعمه دائماً مرّاً في حياتي.

قطّب الحسن جبينه، طقطقت أسنانه واحتكّت أضراسه ببعضها. دفع الباب بركلة وخرج. توقّف عند البقّال، أخذ يرسل من صدره زفرات وينفث الهواء بقوّة، كما لو كان قد ركض آلاف الكيلومترات، لاحظ الأعرج ذلك، ومدّ له سيجارة رخيصة. تناولها الحسن. بحث عن علبة الثقاب في جيبه، فلم يعثر عليها. أشعل له البقّال:

ـ أنت لا تملك حتّى عود ثقاب، لهذا السبب فهي تنبح وراءك دائماً.

ـ لو سمعت الكلام الذي كانت تخرجه من ذلك الفم القذر.

ـ هل يداك مشلولتان؟ لماذا لا تضربها؟

ـ لقد تعبت من ذلك كلّه.

طلب منه البقال أن يجلس. جلس الحسن. ومدّ له البقّال نصف كأس من الشاي البارد:

ـ اشرب وانس همومك.

ـ لقد تركتها تهيّئ الشاي.

ـ اشرب هذا. وسوف يحنّ الله.

بعد ذلك وقف ولده أمامه كشبح، متسخاً، ليس من هذا العالم، وقف على بعد خطوتين منه.

ـ ماذا تريد؟

ـ أمّي هيّأت الشاي.

ـ قل لها إن شايها مرّ.

ـ لا أستطيع.

ـ اذهب يا وجه...

اختفى الطفل، ثمّ بعد لحظات، عاد يحمل صينيّة من المعدن الرخيص عليها كأسا شاي، وضع الصينيّة فوق التّراب واختفى دون أن يكلّم أباه. رأى البقّال ذلك. وقال للحسن:

ـ لا تغضب، قم وهات الصينيّة.

ـ لا أريد أن أشرب شايها.

ـ إلعن الشيطان، الشاي لا يزال ساخناً. ألا ترى معي أنّهن رغم كلّ شيء رؤوفات بأزواجهنّ.

قال الحسن:

ـ يلعن....

لم يكمل الجملة، وقف بتهالك، وحمل الصينيّة بأناة من فوق التّراب.

(9)

امّحت التّخوّفات. المقدّم لن يهدّد بعد الآن بهدم البرّاكة، بل أكثر من ذلك، أصبح في الإمكان توسيعها، على مرأى ومسمع. لقد دفع الحسن رشوة ثانية بواسطة البقّال. لكن، مع التأكيد أنه لا يمكن السماح بإعطاء رقم للبرّاكة. بعد ذلك أصبح حميد يسمع أمّه وأباه كلّ مساء عندما يعود، يتحدّثان، عن الزواج، من يتزوج من؟ فهم فيما بعد أنه المعني بالأمر. ماذا يهمّه؟ عمره ثمانية عشر عاماً. امرأة في البرّاكة؟ هذا شيء جميل. كم يتشهاهنّ في الشارع وهنّ بالبنطلونات الضيّقة. لكن أولئك، لا يمكن أن يصل إليهنّ أبداً. إنهنّ من عالم آخر. يتلمّظ أيضاً كلّما رأى بنات الأكواخ وقد التففن في جلاليبهنّ، أغلبهنّ يشتغلن خادمات أو لا يشتغلنّ أو يحترفن البغاء لإعالة أهليهنّ. لكن ليس عنده وقت للحصول على إحداهنّ. إنّه لا يعود إلاّ متأخراً في الليل، يلزمه أن ينام ليستيقظ مبكّراً، ومع ذلك، فهو يستطيع أن ينفّس عن نفسه بطرق يمارسها كلّ من هو في سنّه من أبناء جيله.

حاول الأب مراراً أن يبعد هذه الفكرة عن ذهن زوجته.

ـ إن حميداً لا يزال صغيراً.

ـ لا تقل هذا الكلام، لقد تزوّج أبي وهو في الخامسة عشرة.

ـ ذاك زمان وهذا آخر.

ـ لماذا؟ لم يكن أبي يجد حتّى ما يقتات به، ومع ذلك فقد خلّف أحد عشر ولداً. أمّا حميد فهو يشتغل.

ـ افعلي ما تشائين إذا لم تريدي أن تستمعي إليّ.

وبالفعل قرّرت أن تفعل ما تشاء. استعرضت خمس أو ستّ فتيات، هذه شغّالة وهذه عاطلة. هذه عمشاء والأخرى تغمز بقدمها، لكنّها ذات ردفين وسمينة. تحيّيها كلّما رأتها، ويبدو أنها ستكون مطيعة لها. وعندما تحدّثت الأمّ إلى حميد طأطأ رأسه خجلاً. فكّر مليّاً، لم يرفع رأسه في وجهها.

ـ افعلي ما تشائين.

وبالفعل قرّرت أن تفعل ما تشاء أيضاً. اقترحت فيطونه التي تغمز بقدمها اليسرى، تخيّل حميد صورتها. لا بأس إذا غمزت بقدمها، لكنّها مع ذلك سمينة، تحلّب فمه وتملكته قشعريرة.

قال أحد أصدقائه:

ـ ستتزوّج وأنت لم تر من الدنيا شيئاً. هل سكرت يوماً؟ هل نمت مع أمريكية؟

هل أنفقت عليك امرأة تبيت الليل كلّه تشتغل في ملهى ليلي من أجلك؟

ـ إن أمّي أرادت ذلك. ثمّ هل الزواج يمنعني من أن أمارس كل تلك الأشياء. هل تعتقد أن امرأة واحدة تكفيني؟.

ـ هل تعتقد نفسك ثوراً؟

وقال صديق آخر:

ـ دعه يتزوّج. ما أبشع أن ينام رجل وحده في ليالي الشتاء البارد! خصوصاً في تلك البراريك الملعونة.

وقال حميد:

ـ هذا رجل يعرف ما يقول.

ثم ضربه على كتفه وهو يضيف:

ـ إنّ هذا يريدني أن أبقى بدون زواج حتّى أفقد رجولتي. هل تعرف؟ لقد تظاهرت لأمّي بالخجل، لكن في قرارة نفسي أريد ذلك. ما أروع أن تكون معك امرأة:

ـ سوف يحوم حولها الرجال.

ـ مثلما يفعلون بأختك.

أراد أن يتشاجرا. لكنّ الصديق الثالث تدخّل، فضّ النزاع وتفرقوا في الشوارع.

أشاعت والدته ذلك بين جاراتها، اغتبنها كثيراً، وتحدّثن عن حمقها، إنها امرأة لا تجد ما تأكل وسوف تزوّج ابنها، وقالت واحدة:

ـ كان عليها أن تتزوّج هي.

ـ والله يا أخيتي من يتزوّج جيفة مثلها؟ لقد تزوّجها ذلك الرجل الكسول لأنّه لم يجد امرأة تقبل عليه.

ـ الله يهديك. النّساء كثرن هذه الأيّام، أصبحن يقبلن حتّى على ذوي العاهات، المرأة اليوم تتلهّى بواحد كيفما كان، حتّى يأتيها الله بواحد أحسن منه. والمحاكم لم تخلق للزواج وإنّما خلقت للطلاق أيضاً.

ـ ولكن كيف يستطيع ذلك البرهوش أن يتزوّج؟

ـ إنّه أقوى من بغل. يستطيع أن يحبّل نساء قبيلة بأكملها.

وقالت واحدة:

ـ إذا كنّ حمقاوات وأقبلن عليه.

ـ وما له؟ إنّه شاب ويشتغل.

فكرة الزواج لم تتحدّد في ذهن حميد بعد. لكنّه حبّذها. سوف يفعل مثلما يفعل كل النّاس، يتزوّجون وينجبون. يحترمهم الجميع، بعد ذلك، يلزمه أن يغيّر من سلوكه. سوف يتحدّث بطريقة خاصّة مثلما يتحدّث الرجال المتزوّجون، وسوف يكفّ عن ارتكاب حماقات مثل تلك التي يرتكبها العزّاب، بعض زملائه من بائعي الصحف الأكبر منه سنّاً متزوّجون. لكن يبدو أنّهم يعيشون مسحوقين، دائماً رؤوسهم مطرقة. يأكلون بامتعاض وتقزّز، غير أنّ ثيابهم نظيفة، عكس العزّاب الذين تظهر ثيابهم مسودّة باستمرار بفعل احتكاك الجرائد يوميّاً بها.

وقال أعزب:

ـ سوف يصبح لك أبناء، سيذهبون إلى المدرسة، يتوظّفون وينفقون عليك.

وقال أعزب آخر:

ـ سوف يهجر هذه المهنة القذرة، يجلس عند عتبة الدار التي يبنيها أبناؤه. يتأمل الغادين والرائحين. يا لها من شيخوخة مريحة!

شعر حميد أنّهما يسخران منه، لكنّه لم يكن في مستوى الردّ عليهما، لا يهمّ، المهمّ أنّهما ينطلقان من حسد حقيقي، ما من أحد منهما كره وجود امرأة بجانبه، تطبخ له الشاي، تضع له لبيخة على

رأسه عندما يشعر بألم، تغسل له ثيابه. حميد يعرفهما جيّداً، أحدهما يعيش مع زوج أمه، ينتزع منه كلّ نقوده، والآخر يعيش مع أبيه الأعمى وأمّه الصّماء، ينفق عليهما. إنّهما لا يقدران على الزواج. لو استطاعا ذلك لما تحدّثا عنه بسخرية مؤلمة مثل هذه. لكن المهمّ أنه سيتزوّج. أمّه كلّمته في الأمر، وأخذ يتخيّل صورة زوجته التي تغمز برجلها، ذات الردفين والمتورّدة الوجنتين، تساءل ماذا تأكل تلك العجلة. إنّها عجلة فعلاً، غليظة وسمينة. إخوتها كلهم نحاف ضعاف الأجسام، أمّها قصيرة في طول خنصر، لكنّها هي، تبدو مثل يهوديات حيّ الملاّح اللواتي يأكلن الفلفل والباذنجان كثيراً.

قال زميل متزوّج:

ـ لا تهتمّ لذينك الأحمقين. إذا تزوّجت فسترى كيف أن الحياة تتغير. الزواج يدخل على صاحبه بالخير.

ضرب حميد قطعة حجر بقدميه لكنّه أخطأها. تأمّل قطعة الحجر وهي جامدة تماماً أمام حذائه القديم. كان يستمع لزميله المتزوّج بغير اهتمام، له ابنان، لكن الخير لم يدخل عليه. ربّما هو في البداية. سوف يدخل عليه الخير بعد سنوات.

وقال حميد:

ـ المهمّ أن تكون معي في البرّاكة امرأة. ألاّ أعرف كثيراً من النّساء؟ ليس عندي وقت لمطاردة إحداهنّ.

ـ أن يكون عندك وقت أم لا، هذا شيء غير مهمّ، سوف تعرف كيف أن الحياة تتغيّر، لكن في الشّهور الأولى من الزواج ستتأخر كثيراً عن العمل.

لم يفهم. قال حميد:

ـ ولماذا أتأخّر؟

ـ سوف تعرف فيما بعد؟ دع عنك كلام ذينك الوغدين. إنَّهما يسخران منك.

ـ لا. إنّهما لا يسخران، إنّهما يشعران بحسد، أعرفهما جيّداً. يسكنان بالقرب منّا.

بعد أن ظلّت الأمّ تغيّر خرقها النظيفة وتدور على الحارات، تشيع بأنّها ستزوّج ابنها، أصبحت النّساء يتحدّثن عنها، عندما يشربن الشاي، أو يغزلن الصوف، أو يصنعن الحلفاء. أو حتّى عندما لا يفعلن شيئاً. عندما يكنّ جالسات في ظلّ البراريك على التراب يغتبن بعضهنّ ويأكلن لحم إخوانهنّ وأخواتهنّ ميّتاً وما كرهنه. ولم تكن الأمّ وحدها هي التي تغيّر خرقها النظيفة فقط، بل أصبحت فيطونه تفعل الشيء نفسه، تطلي وجهها بالأحمر وتكحّل عينيها وتكثر من الخروج إلى الحانوت أو الفرّان أو السقاية، لكنّ أمّها كثيراً ما كانت ترفض ذلك.

ـ أنت الآن مخطوبة، احشمي قليلاً.

ـ هل فعلت شيئاً فيه عيب؟!

ـ ضعي نقاباً على وجهك على الأقلّ.

ـ كلّ البنات يخرجن سافرات.

ـ قبل أن يتزوّجن.

ـ حتّى النساء المتزوّجات يخرجن سافرات.

ـ ذاك شغلهنّ، إن أمّك عندما خطبت أولّ الأمر لم تكن تخرج من بيتها حتّى خرجت نهائياً إلى بيت زوجها.

وقال أخوها الأصغر:

ـ دعيها يا أمّي تفعل ما تشاء، لكن إذا سمعت عنها شيئاً فإني سوف أكسر رجلها الأخرى. أنا وحدي أعرف كيف أعيد هذه العرجاء إلى الطريق.

أرادت فيطونه أن تنتف شعره، لكنّه ابتعد خلف الشجرة التي تتطاول وسط حوش برّاكتهم، أصيبت بنوع من التشنّج، لم تحاول أن تلاحقه لأنّها تعرف أنّها لا تستطيع أن تمسك به. اكتفت والدتها بتهدئتها.

ـ يا ابن قليل الفائدة. إنّك تشوّه سمعة سلعتك، متى كانت أختك عرجاء؟ هذه المرّة إذا كرّرتها فسوف أضربك (برابوز).

ثمّ إلى فيطونه:

ـ أنا أتحدّث إليك، يا ابنتي، من أجل مصلحتك فقط، افعلي ما تشائين، اسألي المجرّب ولا تسألي الطبيب.

بعد ذلك كفّت فيطونه عن الإكثار من الخروج لكنّها لم تتعرّف على حميد، لم يسبق لهما أن تحدّثا على انفراد، لكنّ صورته في ذهنها، شاب، قوّي وجميل، لا يرفع عينيه عندما تمرّ امرأة، فوق هذا، إنّه لا يدخّن الكيف، مثلما يفعل أغلب أبناء الجيران، وفوق هذا أيضاً إنّه يشتغل، على عكس أبناء الجيران الذين لا يعرف أحد من أين يأتون بالنقود لكي يشتروا الخمر والحشيش.

(10)

هل الزواج حقاً يأتي بالبركة؟ حميد، هذا القذر الذي لم تكن امرأة تنظر إليه أو تهتمّ به أصبح اليوم يغسل شعره كلّ صباح، يدهنه ويمشطه. أصبح يحلق تلك الشعيرات القليلة المنتثرة على عارضيه الأمردين. أصبح هو الآخر محبوباً من طرف فتاة تشتغل في ملهى ليلي، بدويّة مهاجرة من العوامرة. تعلّمت في خلال ثلاثة أشهر كيف ترتدي البنطلون وتقصّ شعرها وتضع الأصباغ وتشرب وتدخّن، وتعلّمت أيضاً بضع كلمات أمريكية تستعملها عند الحاجة!

في صباح باكر قبل أن تطلع الشمس، كانت معركة حامية أمام ملهى «صليب الجنوب»، بين مغربي وجندي أمريكي، المومس غنّو بينهما في منتهى السكّر. كلّ واحد يجرّها نحوه. كانا سكرانين كذلك. أخرج الجندي الأمريكي سكيناً قصيرة لكنّها حادّة. وضعها على عنق غنّو. كانت هي تنظر إليه فقط وعيناها مثقلتان بفعل الشراب والنّوم. يشتم الأمريكي المغربي، ويدفع السكين في عنق غنّو. هي لا تكاد تشعر ولا تصرخ أو تستنجد. ابتعد المغربي قليلاً وأخذ يبول على جذع شجرة في غبش الفجر، شجرة تنشر ظلاً قصيراً تحت ضوء عمود كهربائي في الشارع. سحب الأمريكي السكّين عندما شعر ،بالأمان. أمسك غنّو من يدها وأخذ يجرّها. كانا لا

يقويان على المشي. حميد ينظر من بعيد وصحفه تحت ذراعه. أخذت تتلكّأ. عيناها فقط تستنجدان بحميد. تشبّثت بجذع شجرة على الطوار، لكن الجندي الأمريكي استطاع أن يجرّها بقوّة وعنف، كادا أن يسقطا. زرّر المغربي السكران سرواله ثم تبعهما، توقّف الأمريكي من جديد وأخرج السكين القصيرة من جيبه، صوّب رأسها هذه المرة تجاه الرجل، لكن هذا الأخير لم يأبه لذلك. أخذ يشتمه بالعربية. اقترب منهما أكثر فتراجع الجندي، ثم تقدّم نحو المغربي ولوّح بسكينه في الفضاء، تحرّك حميد أيضاً نحو الثلاثة. كانت غنّو قد ارتخت نهائياً من الخوف، جلست عند جذع شجرة عندما خانتها ركبتاها. لم تعد تقدر على الوقوف. أخذ الشراب يتبخّر من رأسها. أصبحت تدرك قليلاً ما يدور حولها. تحرّك حميد أكثر، وبسرعة أطار السكّين من يد الأمريكي بقدمه. جرى نحو السكّين، التقطها وأشهرها في وجه الرجلين. افترقا عن بعضهما ووقف حميد بينهما وألقى بجرائده في حضن غنّو. ثمّ أخذ يضرب في جنون. سقط المغربي على الطوار فتدفق الدّم من جبهته. انقضّ على الأمريكي بلكمات، كان هذا الأخير يحرّك قبضته في الهواء محاولاً الدفاع عن نفسه. لكنّه لم يكن يقوى على ذلك، ضربه حميد في وجهه وبطنه مرّات عديدة، ورغم ذلك، لم يسقط إلاّ بعد أن تعب. حميد انهال عليه بضربة حذاء في وجهه فأصدر الأمريكي صوتاً مثل صوت الخنزير. تمدّد مثل ميّت في غبش الصباح، دم المغربي لا يزال يسيل، كان هناك، أيضاً، في رأس الشارع سكارى آخرون يترنّحون ويتدافعون، لم يهتمّ أحد لما وقع. تقدّم حميد نحو غنو، خافت أن يفعل بها مثلها فعل بالآخرين. وقفت وأخذت ترتعد، وضعت كفّاً على جذع الشجرة والصحف تحت قدميها، قال حميد:

ـ لا تخافي، يجب أن تتعلّمي مع من تسكرين هذه المرّة.

ـ كانا يدفعان عليّ. كلّ الناس يدفعون عليّ. لكنهما في الأخير تشاجرا، كلّ واحد أرادني لنفسه. لا أستطيع أن أقسم جسمي إلى شطرين. ما أنا إلاّ وليّة ضعيفة.

انحنى حميد والتقط صحفه. رتّبها ثمّ تأبّطها.

ـ أين تسكنين؟ سوف أرافقك. هل ربحت كثيراً هذه الليلة؟

ـ قليلاً. إنّي أسكن هناك في زنقة «فرانسوا دي فيون» التي تلتقي مع شارع «علي بن أبي طالب».

ـ هل تسكنين وحدك؟

ـ نعم. كانت معي فتاة أخرى، هي أيضاً من «العوامرة». يقال إنّها دخلت السجن، ويقال أيضاً إنّها هربت مع جندي أمريكي إلى أمريكا، ما يزال سريرها وبعض ثيابها هناك، المسكينة! هي التي أخذت بيدي أوّل الأمر. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المدينة.

تبدّد الشراب أكثر، لكنّها، مع ذلك كانت ما تزال تترنّح قليلاً، وضع حميد كفّه على ذراعها، لم تشعر بخوف ولا تقزّز، في حين شعر هو برعشة خاصّة. مرّت في رأس الشارع سيّارة شرطة، جرّ حميد غنّو إلى باب عمارة، دفع الباب وراءهما واختفيا تحت الدرج. مرّت لحظات صمت، لم يسمعا صوت محرّك سيارة الشرطة، يبدو أنّها لم تأبه لهما.

وقال حميد:

ـ انتظري سوف أعود، ربّما ضبطوك، سوف أرى ما إذا كانت السيارة قد اختفت.

أطلّ برأسه من باب العمارة، لم يكن هناك أثر لأيّ شيء. لا أثر لسيارة ولا أثر لبشر. هناك أصوات مترامية، متعبة، متثاقلة النّبرة تأتي من مكان ما. عاد حميد إلى غنّو، طمأنها ثمّ جرّها من ذراعها. كان أسفل الدرج شبه مظلم. عندما خرجا بدأت بعض أشعّة الشمس تتوزّع ضعيفة في السماء. المصابيح ما تزال تضيء الطريق. سارا بخطوات سريعة إلى زنقة (فرانسوا دي فيون)، دخلا إلى ساحة واسعة تحيطها من أربعة جوانب غرف لصيقة ببعضها، فوق الطابق الأرضي طابق آخر، كلّ الأبواب مغلقة، إلاّ باب واحد من فوق مفتوح، تنبعث منه موسيقى. فتحت غنّو الباب، وارتمت فوق أقرب سرير. كان هناك في الزاوية سرير آخر، فوقه كومة من الثياب، وتحته أكوام من أشياء لم يستطع حميد تمييزها. رأى باباً صغيراً عند رأس السّرير الثاني، توجه إليه لكي يتبوّل، لكنّه سمعها تقول:

ـ ليس هناك مرحاض، إنّه مطبخ. في الخارج، عن يمينك، تجد مرحاضاً مشتركاً.

وضع حميد صحفه فوق السرير، وخرج إلى المرحاض، ثم عاد ليجد غنّو تجهش بالبكاء. كانت تبكي وتحاول أن تمنع نفسها من ذلك، لكنّ نوبة البكاء تزداد، في الأخير كفّت عن ذلك. جلس قبالتها على السرير. أخذ ينظر إليها دون أن يتكلم. لكنّها قالت وعيناها مثقلتان بالنوم:

ـ ألست متعباً؟ ألا تريد أن تنام؟

ـ عليّ أن أذهب لأبيع صحفي، هذا الصّباح لم أكن بعت سوى صحيفتين، لمّا انشغلت بتلك الحادثة.

ـ غير مهمّ. كم تربح في اليوم؟

ـ كلّ يوم ورزقه.

ـ استرح قليلاً، يبدو عليك أثر التعب.

تقول ذلك ولا تنظر إليه لأنّها كانت ممدّدة على ظهرها وذراعها فوق عينيها.

ثم أضافت:

ـ يمكنني أن أقرضك من بعض ما حصلت عليه هذه الليلة، استرح قليلاً.

كان حميد ينظر إلى الجدار الذي علّقت عليه بعض الثياب النسوية. ركّز نظراته في غير اهتمام على تلك الثياب. لم يكن يفكّر في شيء، وقالت غنّو:

ـ أين تسكن؟

ـ في الدّوار، في تلك البراريك القذرة.

ـ إنّها قذرة فعلاً، كوخنا في العوامرة أحسن من أيّة برّاكة من تلك البراريك. لو لم تقع تلك الحادثة لكنت قد بقيت مع أبي وأمّي وإخوتي. العوامرة أفضل لي بكثير.

كانت تتحدّث كما لو كانت تهذي، حميد يستمع إليها، يندهش، لا شكّ أنّ وراء كل فتاة من هذا النوع حادثة. قال حميد:

ـ أية حادثة؟

ـ لا يهمّ، فعلها ولد الرايس فهربت بنفسي. إنّك متعب. حاول أن تنام. لا أريد أن أتكلّم أكثر.

فكّر أن يفعل ذلك، ليذهب الرئيس إلى الجحيم. ماذا سيحدث لو لم يبع صحفه هذا النهار. كنت مريضاً، ذهبت إلى المستشفى،

حقنوني وقالوا لي: اذهب لتنام، ألا يمرض الإنسان أبداً في المهنة؟ هل نحن بشر من لحم ودم أم من صلب وحديد؟ بقي له أين ينام؟ أين يمكن أن يمدّد جسده؟ هنا أم هناك؟ تشجّع واندفع نحوها. خاف أن تزجره، لم يجرّب كثيراً هذه الأمور. جلس بخوف وتوجّس عند حافة السرير الذي تتمدّد عليه غنّو. لم تتأفف، لم تنتفض، لم تزجره. إنّما، تزحزحت قليلاً وتنهّدت، ثم أفسحت له مكاناً بجانبها. استعاد ثقته بنفسه. تمدّد بجانبها، انتظرها ماذا تفعل، وهي مغمضة العينين، أخذت تنزع ثيابها عنها وتلقيها على الأرض، فعل مثلها بدون خوف، كانت عيناه مفتوحتين الآن، لكنّ أشعّة الشمس التي تتسرّب من نافذة صغيرة فوق الباب، أشعّة الصّباح استطاعت أن ترغمه على إغماضهما.

(11)

حتّى حميد هذا القذر، أصبحت النّساء تجري وراءه!

فكّر أحد زملائه: لو أن العرجاء ذات الردفين علمت بذلك لاستطاعت أن تنشب أظافرها في عنقه، وتترك جداول الدماء تسيل منه. إنّه يعرف أمّها الشرسة التي تستطيع أن تدير معركة بكاملها مع جميع نساء الحيّ دون أن تنهزم أو ترعوي حتّى يأخذوها إلى المستشفى العمومي، ومن غير شكّ فإنّ العرجاء تشبه أمّها.

قال أحد الباعة:

ـ سيظلّ يتبع تلك المشؤومة حتّى تقضي عليه.

ـ كيف تقضي عليه؟ إنّه رجل. ثمّ، من لا يتمنّى أكبر عدد ممكن من النّساء؟

ـ كلّنا نريد ذلك، لكنّي أقصد أنّ لها كثيراً من المعجبين، سيضربه أحدهم ذات يوم بقنّينة أو بسكّين.

ـ أنت تحسده فقط.

ـ كيف أحسده؟ أنا أيضاً لي صديقتي، وهي أفضل من تلك القرويّة الغبيّة.

كلّ الزملاء يعرفون الآن أنّ لحميد علاقة مع غنّو، وحميد

يحاول الآن أن يحصل على أكثر من غنّو واحدة، لم يكن ذلك في إمكانه، فتيات من هذا النوع لم يعدن يتشبّثن بأحد، إلاّ إذا كان لا يصحو وجيوبه مملوءة دائماً. كلّهنّ يحلمن بالزواج بأمريكي. أصبح حميد أحياناً يبيت عند غنّو. أعطته مفتاحاً ثانياً، في بعض الأحيان لا تدخل غنّو إلى البيت، وقد فهم حميد فيما بعد لماذا كانت تفعل ذلك، كانت تذهب مع هذا الزّبون أو ذاك. وأحياناً أخرى يلتقي بها وقد انفتخ أحد محجريها، يسألها حميد:

ـ من فعل بك ذلك؟

ـ لم أعد أذكر. كنت شاربة.

ـ أنت تعرفينه، قولي لي من؟

ـ لا يهمّك ذلك. لا تمرّ ليلة إلاّ وفيها مشاكل، هل تستطيع أن تحلّ كلّ تلك المشاكل؟

فهم حميد فيما بعد أيضاً أن تلك المهنة هي مهنة المشاكل حقاً. لكنّه كان يستريح لغنّو، فتاة لا تعطي أهمية للمال. كثيراً ما تدسّ في جيبه بعض النقود التي لم يكن في حاجة ملحّة إليها.

ـ أنت ستتزوّج. عليك أن تجمع مالاً لتعرّس.

ـ أمّي هي التي تكفّلت بكلّ شيء.

ـ لا تعتمد على أمّك. يمكن لها أن تلقي بالنقود والزوجة معاً في المزبلة ذات يوم، وإذاك ماذا ستفعل؟ سوف تندم على كلّ شيء. يجب أن تجمع قليلاً من المال.

ـ أين أضعه؟ سوف يكتشفونني. أمّي تفتش برّاكتي كل يوم.

ـ احفر في الأرض.

ـ حتّى الأرض تفتّشها. أنت لا تعرفينها.

ـ ضعها هنا، ألا تثق بي. ثمّ إنّ لك مفتاحاً ثانياً. فلوسي أنا أيضاً موضوعة هناك في مكان ما.

في الغرفة كانت دائماً هناك زجاجات نبيذ وأنصاف زجاجات. ولكثرة ما تعوّد حميد على رؤيتها ورؤية غنّو وهي تشرب، حاول أن يبدأ، في النهاية، بدأ بكأس مرّ. ثمّ بكأسين أقلّ مرارة... ثمّ... إلخ. وكانت أمّه تشعر بأن هناك شيئاً ما يدور في رأسه، لقد تغيّر كثيراً، فكّرت أنّ الرجل عندما تتغيّر عاداته، فإنّما المرأة هي التي تفعل به ذلك. وحاولت أن تخمّن من تكون تلك المرأة. لكنّها لم تستطع أن تصل إلى أيّة نتيجة. تصوّرت أن هناك اتّصالاً ما بينه وبين فيطونه. كيف يستطيع أن يفعل ذلك وهو لم يدخل بها بعد؟ قالت ذلك للحسن، رفع هذا الأخير كتفه وغمغم:

ـ ماذا يهمّ؟ إنّها زوجته، يتغيّر أو لا يتغيّر، هذا ليس من أمرنا.

ـ لكنّه لم يدخل بها بعد.

ـ يدخل أين؟ الله يدخلك إلى جهنم، اتركي الولد لشأنه.

ـ لم يعد يبيت في برّاكته.

ـ فليبت حتّى في المزبلة، هل ذاك شغلك؟

لكنّها مع ذلك تريد أن تعرف كلّ شيء. خشيت أن تكون هناك امرأة أخرى غير فيطونه، النّساء حراميات، أحابيلهنّ كثيرة، لكنّ حميد لم يعد يصمت ويحني رأسه مثل عجل، أصبح الآن يواجه أباه وأمّه. يرفع عينيه في أعينهما. يستطيع أن يكذب بثقة.

ـ أين نمت أمس؟

ـ ليس هذا شغلك، لقد نمت عند صديق.

ـ هل هو صديق أم صديقة؟

ـ صديقة.

ـ هل تتجرّأ يا كلب أن تقول ذلك أمام والديك؟ هذا جيل قمّش لا يحشم ولا يرمّش.

ـ لا، هذا جيل خزيت.

تضرب أمّه فخذيها وتصرخ في وجه الحسن:

ـ هل سمعت ما يقول هذا الملعون ابنك؟ لم تلد لي سوى البلاء.

ـ تقولين لي ذلك كما لو كنت أنا الذي حملت به تسعة أشهر.

ثم ينصرف الحسن، وتظلّ هي تضرب فخذيها وتردّد: «ويلي، ويلي على غدا يدي، النّساء يلدن بني آدم وأنا ألد الشمايت».

لم تفهم أمّه شيئاً في هذا التغيير الذي حصل لحميد. لم يعد يخشاها. في السابق لم يكن يستطيع أن يردّ عليها. دائماً كان يقول نعم، اذهب إلى الجحيم. الآن. اشنق نفسك، نعم، الآن، اسكت، نعم، لا تأكل، نعم، لكنّه الآن تغيّر، هذه امرأة ملعونة من غير شكّ هي التي فعلت به ذلك. قالت ذلك لبعض جاراتها، قلن لها: السبب منك. أنت التي أوعزت له بالزواج حتّى أصبح يشمّ رائحة إبطيه، وعندما يشمّ الفتى والفتاة رائحة إبطيهما فيا ويل العالم من حولهما. لكنّها لم تستطع أن تجد علاقة بين هذا التغيير الذي حصل وبين أمر الزّواج. فكّرت دائماً في المرأة، ثمّ أقسمت إنها سوف تكتشفها وتشرّدها في الطرقات. ستذهب عند الشوّافة هي التي تستطيع أن تخبرها بالمكان الذي تحطّ فيه هذه الملعونة ـ حطّ الله

فوق رأسها الصخورا ـ وبعد ذلك تذهب إلى الفقيه الذي يسقط العصافير من السماء بسحره، ويجعل التفاحة دجاجة إذاك سوف تأتيها مكتوفة الأيدي تبوس قدميها الحافيتين المتشققتين وتطلب المغفرة. لكنّها لن تغفر لها حتّى تنتف شعرها وتمزّق ثيابها وتريها أيّ نوع من النّساء هي.

لم يعد حميد يزور بيتهم إلاّ مرة كلّ أسبوع تقريباً، فيطونه هي الأخرى علمت بذلك، أكّدت لنفسها أنّه لا يكذب، ربما ينام عند بعض الأصدقاء، على كلّ حال، هو رجل، لا يمكنها أن تخاف عليه لأنّه ليس فتاة عرجاء. حتّى العذارى اللواتي يشتغلن في بعض البيوت كخادمات، لا يزرن بيوتهنّ إلاّ قليلاً، لماذا تخاف عليه إذن؟ لكن من يدري؟ ربّما كانت هناك امرأة كما تقول أمّه. وحاولت أن تطرد مثل تلك الخيالات من ذهنها. حميد لا يستطيع أن يفعل ذلك. هو لا يرفع عينيه في امرأة أبداً، إنّه يخجل من ظلّه.

وقال أحد الباعة لصديقه:

ـ ألم أقل لك إنّ تلك البدويّة سوف تذهب بعقله؟

ـ دعه يتمتّع، فهو لا يزال شابّاً.

ـ يتمتّع؟ كلّنا نريد أن نتمتّع، لكنّه نسي زوجته ووالديه.

ـ ماذا يفعل بوالديه؟ لو لم يكن ذلك الحشّاش أبي، لكنت قد أنهيت دراستي وأصبحت موظفاً مع الدولة، هو الذي أوقفني عن الدراسة ودفعني إلى هذه المهنة القذرة، عندما أتذكر ذلك أعبّ زجاجة من النبيذ دفعة واحدة.

ـ ومع ذلك، فرضى الوالدين لا يفوقه سوى رضى الله.

ـ قل ذلك لنفسك، انتظر رضى الوالدين حتّى تسقط في حافة.

ـ إنّني ساقط فيها الآن.

ـ قلها لنفسك.

بدأ حميد يشعر أنّه شخص آخر، يشرب كلّ مساء وينتظر غنّو في نهاية الصّباح لتوقظه عندما لا تتغيّب أو تذهب مع زبون. الغريب أنّها لم تكن تشعر بغيرة تجاه فيطونه. ربما شعرت بذلك وأخفت عواطفها. إنّ المرأة الشرعية مقدّسة. أمّا هي فإنّها عابرة في حياته. أحياناً تتمنّى لو تنتزعه منها، لكن بطريقة شرعية، غير أنّها ليست عذراء وتخرج مع كثير من الرجال. في المستقبل، ربما لن يرضى حميد بذلك، وربّما فعل بها مثلما فعل بذينك الشخصين في ذلك الصّباح الباكر.

وقالت غنّو:

ـ متى ستعرّس؟

ـ قالت أمّي يجب أن أعجّل بذلك، لقد جرحت قدماي من الخروج، وتشكّكت في أن تكون هناك امرأة في حياتي.

ـ كم أريد أن أرقص في عرسك؟

ـ لو كنت شيخة لاستطعت أن تفعلي ذلك.

ـ لست محظوظة. لن أرقص حتّى في عرس من أبغي.

ـ بعد العرس. سوف ترقص هنا في الغرفة، وسوف نقيم عرساً ثانياً.

وذهبت غنّو إلى المطبخ، تأخرت قليلاً، ثمّ عادت بسوار صغير من الذهب، ثم قدّمته لحميد.

ـ بعه، أو افعل به ما تشاء، قدّمه لزوجتك إن شئت.

ـ أنت في حاجة إلى هذا، ربّما عائلتك أيضاً في حاجة إلى ذلك.

ـ عائلتي ليست في حاجة إلى شيء، لهم أغنام وأبقار في العوامرة، خذ السوار، أنت الذي في حاجة إليه.

شعر حميد أنّ هناك دموعاً تريد أن تتسرّب من عينيه. قاوم كثيراً، لكنّ دمعتين تدفّقتا من عينيه، وعندما رأت غنّو ذلك أجهشت ببكاء حقيقي. وضعت كفّيها على عينيها. ثمّ وقفت وهرولت مسرعة إلى المطبخ. ظلّت هناك فترة قصيرة، في حين بقي حميد يتأمّل السوار. ينظر في جدار الغرفة. ينظر في النافذة الصغيرة فوق الباب. كم هي طيّبة هذه الفتاة! كم هي صادقة! ليست من ذلك النوع الذي يحدّثه عنه زملاؤه في العمل. «اجعل المرأة أمامك، لا تجعلها خلفك، النّساء غدّارات وحراميات». غنّو يمكن أن يجعلها الإنسان خلفه وهو مستريح، هي من النوع الذي إذا (غاب عنها ـ زوجها ـ حفظته) كما يقول النبي ﷺ. حاول حميد أن يقيم مقارنة بينها وبين فيطونه، ذات الردفين، لكنه لا يعرف هذه الأخيرة جيداً، لم تتحدث إليه كثيراً، لم يعرف ما إذا كان بإمكانها أن تحفظه أو تصدقه، أن يجعلها خلفه أو أمامه، لكنها مع ذلك، ذات ردفين ووجنتين متورّدتين.

خرجت غنّو من المطبخ وآثار الماء على وجهها كانت تجفّفه بظهر كفّها وقالت:

ـ هذه الليلة سيكون عندي شغل كثير، ككلّ سبت دائماً، أتمنّى ألاّ تقع لي مشاكل.

ـ إذا أردت فسوف ألحق بك في الصباح.

ـ لا داعي لذلك، لقد تعوّدت على هذه الحياة، قل لي لا تشربي كثيراً، حتّى أحافظ على مقدرتي العقلية.

ـ آه، ذلك أحسن.

ـ لكن ما يؤرّقني هو أننا سنفترق عندما تتزوج.

ـ لا أعتقد.

ـ لكن زياراتك سوف تقلّ.

ـ لا أعتقد ذلك. كلّ الناس متزوجون ولهم نساء أخريات في حياتهم. إنهم يستطيعون أنْ يوفّقوا بين الزوجة وصديقاتهم.

ـ ليس كلّ الناس.

ـ على الأقلّ بعض الأصدقاء المتزوجين الذين أعرفهم.

لم تكن غنّو مقتنعة تماماً، تتصوّر أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك. هي لم تجرّب الزواج لكن من المحتمل أن يحصل كل شيء مما قاله. المساء يقترب. مدّت غنّو يدها إلى مكان تحت السرير وتناولت مرآة. وضعتها بالقرب منها فوق السرير، لم يكن في الغرفة سوى سريرين. لم يكن هناك كراسي، وقالت لحميد:

ـ وقت العمل الآن، سوف أهتمّ بنفسي قليلاً.

وقف حميد بخفّة وصحفه تحت إبطه.

ـ أتركك الآن، نلتقي في ما بعد.

ـ عندما تعرس، تعال لنقضي الليلة معاً كما قلت. ألن تأتي هذه الليلة؟

ـ لا أعتقد، يجب أن أوجد هناك، لم يبقَ ليوم السبت إلا أيام قليلة.

ـ أغلق الباب وراءك.

خرج حميد، اجتاز الساحة التي تحيط بها الغرف في الطابقين الأرضي والعلوي. كانت بعض الأبواب شبه مفتوحة. في الشارع الطويل، السيارات كثيرة، بعضها خلف بعض، وبعضها في اتجاه معاكس لبعض. غربت الشمس ولكن بقايا أشعّتها لا تزال في الأفق، باهتة، صفراء، مريضة، طف، ثم اشتعلت أضواء المصابيح العمومية، وزقزقت بعض العصافير على أشجار الطوار، دخل إلى أقرب بار على اليمين، كان فيه ازدحام كثير. أناس واقفون وآخرون جالسون، وآخرون أيضاً يذهبون ويجيئون في أيديهم كؤوس أو لا شيء، ضاع من بينهم، ولم يهتمّ به أحد. كانوا يتحدّثون ويضحكون ويتأمّلون ويتألّمون، وكانوا أيضاً... إلخ إلخ.

(12)

قالت والدة فيطونه:

ـ اللّيلة ستعرفين كيف أني أعطيت لولدك فتاة كلّها نقاء وطهارة.

وقالت والدة حميد:

ـ والليلة ستعرفين كيف أنّي أعطيتك أشدّ الرّجال فحولة.

كان حميد مع بعض أصدقائه ملفوفاً داخل جلابية، يشربون الشاي. بعضهم كانوا يُخرجون من تحت ثيابهم قنينات نبيذ مصنوعة من البلاستيك، ويصبّونها في الجوف بنهم وشراهة، يضحكون ويحلمون بمثل هذه اللّيلة، كانوا حوالي سبعة غير متزوّجين. وفي أعماقهم يتلمّظون على ذات الردفين، كانت في نفوس أغلبهم، خصوصاً الذين يشربون، غريزة خيانة متحذّرة. رغم أنّهم يضحكون، ويشدّون على كتف حميد.

ـ هذه ليلتك يا فحل. حمّر لنا الوجوه.

ـ سوف أحمّرها حتّى تنزّ دماً.

ضحك حميد. خارج القيطون الذي يشدّ في زاوية من الحوش، عند الشجرة، أصوات كثيرة تختلط. وأحياناً ترتفع النقرات على التعاريج تتبعها أغنية شعبية شاحبة. تتحدّث في الغالب عن فراق

الحبيب وهجرته إلى بلد بعيد، وعن الذين أخذوه مرغماً، مال وزير حميد على أذنه:

- متى ستدخل بها؟

- بعدما يتعشّى النّاس، عندما تخلو الدنيا من هؤلاء البشر.

- عليك أن تشرب قليلاً حتّى تتشجّع.

- أستطيع أن أشرب زجاجة بأكملها قبل الدّخلة.

أطلّت أمّه من باب القيطون بوجهها المتجعّد:

- هل تريد شيئاً؟ من يريد شاياً؟

ثم أخرجت رأسها ونادت على إحدى بنات الجيران:

- تعالي يا فرتلانة. خذي (البرّاد) واملئي الشاي. الله يعطيك ولد النّاس ونشطح في عرسك.

اختفت والدة حميد، ودخلت الفتاة وهي تكاد تتعثّر بخيوط الحصير المستعار من الجيران. عمّ صمت داخل القيطون، كلّهم كانوا ينظرون إليها نظرات غريبة وهي تتناول (البرّاد)، خرجت وهي تبتسم لأحدهم، قال واحد:

- إنّك محظوظ، لقد ابتسمت لك.

- اسكت، إيّاك أن يسمعك أبوها. ألا تعرف أنّه يستطيع أن يمزّق بطنك بسكين؟

- إنّها فتاة على كلّ حال، إلى متى سيحتفظ بها؟ هل سيملّحها وينشرها مثل لحم عيد الإضحى؟

وقال آخر:

- رغم شراسته، فإنّي أعرف عنها الكثير.

وبصوت جماعي:

ـ ماذا تعرف عنها؟ قل لنا.

ـ لن أقول، أنتم تتحدّثون كثيراً. وإذا بلغ أباها الخبر فإنّه سيذبحها.

قال واحد:

ـ يستطيع أن يفعلها، يقال إنه ذبح خمسة عشر فيتنامياً في الحرب، عندما كان مجنّداً في الجيش الفرنسي، ولعق سكين بندقيته.

وقال آخر:

ـ أولئك هم الرّجال، اليوم أصبحنا نخاف من شرطي يمرّ أمامنا.

ـ أنت الذي تخاف منه، من يستطيع أن يخشى شرطياً يداه مثل يدي امرأة؟ من المدرسة إلى الوظيفة. والله لو شربت زجاجة واحدة للويت عنقه ونزعت منه مسدّسه.

ـ إنّك مجرّد مدّع لا أكثر.

عادت الفتاة من جديد، ولم تتعثّر هذه المرّة، وضعت (البرّاد) فوق الصينيّة ولم تبتسم لأحد. عمّ صمت عميق أيضاً، وعندما خرجت قال أحدهم:

ـ من يشرب الشاي؟ لا أحد، نحن شرابنا معنا.

وأفرغ كأساً من النبيذ للذي بجواره.

ـ اشرب، هذه ليلة حميد.

ارتفعت النقرات على التعاريج في الخارج. وسمعت الأقدام

تدكّ الأرض، والزغاريد يغطي بعضها على بعض في غير ترتيب ولا نظام. ثمّ سمع صوت رجل يغنّي غناء مبحوحاً كعواء ذئب، يرافق غناءه صوت كمنجة متحشرج. استمرّ ذلك لوقت غير قصير. ثم يبدو أن الأجسام والأكفّ قد أنهكت في نهاية الأمر، كانت السّاعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، ثم رفعت الصينيّات ووضع الأكل، وانصرف بعض الجيران، لكنّ أصواتاً نسوية، ارتفعت بعد ذلك، وعادت النقرات على التعاريج والدفوف.

وقالت والدة حميد:

- الليلة ليلتك، سترين كيف أنّي زوّجت ابنتك برجل كالرّجال.

- اللّهم حمّر لنا وجوهنا.

لم تكن لدى حميد شهيّة، في حين أكل أصدقاؤه بنهم كبير. اكتفى فقط بلقمتين أو ثلاث أردفها ببضع كؤوس صبّها بسرعة في جوفه. استأذن بعضهم بالانصراف وهم يشجّعونه.

قال وزيره:

- لا عليكم، أنا معه. سوف تسمعون صراخها من بعيد.

وقال حميد وهو يضحك:

- لا تتكلّم عن زوجتي هكذا.

- لم تصبح زوجتك بعد، سوف تصبح زوجتك إذا ما سمعنا صراخها.

ثمّ بعد ذلك أخرجوا حميداً من القيطون، وطافوا به قليلاً في الظّلام الذي يغطّي الأكواخ القصديرية، ثم عادوا به بسرعة ودفعوه إليها. دخل معه وزيره ثم خرج. ارتفعت أصوات الفتيات بالغناء والزّغاريد. واشتدت الضربات على الدفوف والتعاريج. وكانت أمّه

تطوف كالمعتوهة لا تعرف ماذا تفعل. تتحدّث إلى هذه وتعطي الأوامر لتلك في حين انتحت والدة فيطونه مكاناً قصيّاً، وجلست القرفصاء تتأمّل الأرض ولا تتحرّك كأنّها مشلولة. ثم بعد مضيّ الساعة، قالت والدة حميد:

ـ سوف ألتحق بولدي لأرى ماذا يفعل.

ـ دعيه وشأنه.

ـ لقد تأخّر.

ـ ربما يكونان قد ناما.

ـ هل ينامان في مثل هذه الليلة؟ وماذا نفعل نحن هنا؟ إنّنا ننتظر الدّم حتّى نريه للأعداء.

هرولت إلى حيث العروس والعريس، طرقت باب الكوخ، فتح حميد وقد تغيّر لونه تحت ضوء اللمبة.

ـ باسم الله عليك يا ولدي! إيّاك أن تقول بأنك مسحور.

ـ لا يا أمّي أنا لست مسحوراً، أستطيع أن أتزوج قبيلة.

ـ ماذا بك إذن؟

ـ لكنها...

ـ لا تقلها. أليست عذراء؟

ـ ليست عذراء.

صرخت والدته: «ويلي!» وأخذت تلطم فخذيها، وتنتف شعرها. كفّت التعاريج والدفوف والزّغاريد. سمعت والدة فيطونه الخبر فقفزت من مكانها كالمجنونة. أخذت تتمرّغ في التّراب: «أناري! فعلتها بنت الحرام».

محمد زفزاف

محاولة عيش

بلغة بعيدة عن الإنشاء والبلاغة، لغة روائية، يكتب محمد زفزاف. أبطاله في غالبيتهم هامشيون، ولأنهم كذلك فهم أكثر حرية في قول الوقائع. لا يلتفون حول الأشياء ولا يهمهم موقعهم الاجتماعي. عبرهم يقدّم زفزاف ما يريد تقديمه عن حياة المغرب وأهله.

في هذه الرواية نرى كيف أن العلاقة بين بائع الجرائد وبائعة الهوى تتم بكل تلقائية وهي علاقة إنسانية وليس كما يتم تصويرها دائماً. ونرى صورة معبّرة عن حياة سكان "البرّاكات" بيوت الصفيح وحياتهم وصراعهم من أجل أبسط شروط الحياة.

مكتبة
الأدب
المغربي

ISBN 978-9953-68-321-2

9 789953 683218

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz @wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com